مدرسة البلاء

في القرآن الكريم

السيد علي فضل الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الامتحان سُنّة إلهية دائمة، واللّه لا يختبرنا كي يعرف نوايانا، فهو سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. للمسألة جانبها التربوي، تربية الاستعدادات ورعايتها في نفس الإنسان. يريدنا أن نعتبر ممّا نمرّ به، وأن نتّعظ من تجارب غيرنا.

من السهل أن يدّعي الإنسان أنّه مؤمن، لكن عندما يدخل ساحة الحياة المملوءة بالتحديات والإغراءات، يتبيّن معدنه، ويتميّز الذهب من التراب، والصدق من الادّعاء.

وقد يُجرَّب الإنسان في ماله، أو ولده، أو صحته، أو سلطته، أو شهواته، وكلّها بلاءات تعترض مسيرة حياته مرّة أو مرّتين أو مرّات، تُحدّد من خلالها العلامات، وعلى أساسها يكون الموقف يوم القيامة، والمؤمن هو من يتّعظ من تجاربه ومن تجارب غيره، وما أكثر القصص والعِظات التي يقدّمها لنا القرآن الكريم عن حياة جماعات أو أمم دمّرها ظلمها لنفسها، وعن أفراد اشتهروا في التاريخ، وعرفتهم مجتمعاتهم كنماذج للطغيان أو التسلّط، أو التكبّر والغرور.

لقد كان الله واضحاً مع عباده عندما بيّن لهم أنّ البلاء سيكون جزءاً من حياتهم. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وتبقى القيمة لأولئك الذين لا يهتز إيمانهم أمام البلاء، بل يبقى إيمانهم حيّاً يعبّرون عنه بالممارسة والعمل، ولذلك يحصلون على الوسام من عند الله ﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

السيّد علي فضل اللّه

قارون
امتحان الغرور والانبهار بالثروة

عندما نقرأ قصة قارون نشعر أنّ القرآن يُحدّثنا عن رجل يعيش بيننا، نعرفه وإن تغيّر اسمه أو وجهه.

قارون هو واحد من بني إسرائيل الذين عاشوا بمصر، في زمن الفراعنة، لكنّه كان ممّن آمنوا برسالة النبي موسى (ع)، وهو إلى ذلك من أرحامه، وأحد أقاربه، وممّن كانوا يتلون التوراة، ويعملون بتعاليمه.

وشاء اللّه سبحانه أن يختبر إيمان هذا الرجل، ففتح له باب الثروة، حتّى إنّ القرآن الكريم يصف مبلغ غناه فيقول: ﴿... **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ...﴾ [القصص: ٧٦].

صارت ثروة قارون تكبر وتزداد، فجمع ذهبه وأمواله وجواهره في صناديق ضخمة، يعجز عن حملها حتّى الرجال الأشدّاء.

وبقدر ما كانت ثروته تكبر، كان قارون يتغيّر، ونفسيته تتغيّر. أخذ يبتعد عن النبي موسى (ع). لماذا؟ لأنّه بات يشعر أنّ التزامه بنبي قومه أصبح عبئاً عليه وعلى ماله وثروته، لهذا راح يسيء إلى موسى. نعم، تنكّر الرجل لإيمانه، وجرّه الابتلاء بالثروة إلى أكثر من ذلك: إنحرف، وسلك طريق

الفساد. صار همّه الوحيد أن تكبر ثروته أكثر، وبدلاً من أن يكون سنداً لقومه في وجه طغيان فرعون، فقد بغى عليهم، وتكبّر لأنّه صار أغنى أغنياء زمانه، فالمال الذي بات بين يديه جعله فرعوناً آخر، حوله إلى إنسان فرح مغرور، أبطرته النعمة، ويرى نفسه أعلى وأعزّ من أي واحد من قومه.

ومن الطبيعي أن يحاول العاقلون من بني إسرائيل أن ينصحوه علّه يرتدع، ويعود إلى الصراط المستقيم. قالوا له: لا تفرح. لا تكن ممّن تُبطره النعمة وتدهشه جهلاً وتكبّراً. أنظر إلى من هم حولك من قومك، فعليك مسؤوليات. عليك أن تفكّر بكلّ الذين يحتاجون إليك وإلى مالك، أحسن إليهم كما أحسن اللّه إليك.. اعمل على أن تضع هذا المال في خط اللّه وخط آخرتك.

القرآن الكريم يريد أن يعلّمنا هنا درساً: أنت أيّها الإنسان، أكنت قارونا صغيراً أم كبيراً، فإنّ عمرك محدود، وهذه الدنيا سخّرها اللّه لك لتستثمر خيراتها، لكن عليك أن تفهم أنّك لا تستطيع أن تعبّ كلّ الدنيا، وما تجمعه منها أنت مؤتمن عليه، كيف تتصرّف به، كيف تنفقه، وكلّ هذا مسجّل في حسابك في الآخرة ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾ [الكهف: ٤٦].

لقد حاول العاقلون من قوم قارون أن ينصحوه. أمروه بالمعروف، ونهوه عن المنكر، فماذا كان ردّه؟ هل كان ردّ الإنسان العاقل والمؤمن والمتّعظ والحكيم؟

بالطبع لا.. لم يكن كذلك، بل كشف عن جانب آخر من شخصية الإنسان الذي تُبطره النعمة فيطغى: قال إنّما أوتيته على علم عندي.

ليس في الأمر عجب. هذه حال الإنسان عندما تُدهشه النعم: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [العلق: ٦-٧].

فقارون تجاوز الحدّ في ادعائه. لم يكتفِ بالانقلاب على إيمانه، صار من السهل عليه أن يدّعي أنّ هذه الثروة التي حصل عليها إنّما بجهده، وبعرق جبينه، وبإمكاناته التي حصّلها بنفسه، إذاً ما علاقة اللّه بمالي؟!

ألا نسمع مثل هذا الجواب اليوم بشكل مبطّن أو غير مبطّن؟ من السهل على الذي ينسى اللّه أن لا يدخله في حساباته، وهو إن حاز صحة أو قوّة و ثروة لن يتساءل: هذا الجهد وهذا العمل، وهذا الجسد وهذه الإمكانات من أين جاءت، من أعطاها له، من أوجدها.. أليست من اللّه الواهب المنعم، الذي أهلك قبل قارون من هم أشدّ وأقوى.

أليس في هؤلاء عبرة لمن يعتبر ويتّعظ؟

إنّ القرآن يدعونا في آياته أن ننظر حولنا، في مقابرنا، في آثار من سبقونا.. فأين الذين كانوا يملكون الثروات والأراضي، والأملاك والكنوز.. أين الذين كان لهم في كلّ بلد قصر يحكمون ويُطاعون.. ألا يُفكّر الإنسان لو أنّ الدنيا دامت لغيره لما وصلت إليه؟

في حديث لرسول اللّه (ص): يقول ابن آدم مُلْكي ملكي.. مالي مالي. يُقال له: هل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأبقيت؟

قارون رفض أن يكون من المتصدّقين، وأكثر من ذلك، أراد أن يعطي درساً لمن حاول أن ينصحوه.. فماذا فعل؟

يخبرنا القرآن الكريم فيقول: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ...﴾ [القصص: ٧٩].

عندما تتحدّث الروايات عن تلك الزينة تذكر أشياء كالأساطير. لقد أراد

قارون أن يظهر جميع قوّته وقدرته وما يملك من جاه وعزّ.. عربات وخيول وخدم وحشم، وكلّ هذا مزيّن بأغلى الأقمشة وبالذهب والفضة.

أمام هذا المشهد ينقسم الناس إلى طائفتين، كما هي الحال في كلّ زمان ومكان: طائفة هي من عبدة الدنيا وأخرى لا تغريها الدنيا بزخارفها ولا تعني لها شيئاً، أهل الأولى أثارهم هذا المشهد، واستهوى قلوبهم فراحوا يتحسّرون ويتمنّون: ﴿... **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [القصص: ٧٩].

هؤلاء نجدهم في كلّ عصر، وأي واحد منهم على استعداد أن يبيع دينه وآخرته لو عُرضت عليه الدنيا. سرعان ما يسقط في الامتحان والبلاء. لا سيما عندما يكون العرض مهماً.

قارون فعل ذلك في مستهل حياته. كان يسير في خط الإيمان، لكن حبّ الدنيا كان نقطة الضعف في شخصيته، وبدأ بلاؤه عندما عرض عليه فرعون فرصة الحصول على الثروة قال له: سرْ معي وأقدّم لك ما تريد. كلّ المطلوب منك أن تترك موسى، وتتخلّى عن إيمانك، وتسعى إلى شق مجتمع موسى مقابل المال.

وسقط قارون في الامتحان. قَبِل العرض، وعيّنه فرعون في مركز مالي، وبدأ إيمانه يتراجع، وبدأ الذنب يستجلب ذنباً آخر، والتنازل يجرّ معه تنازلاً جديداً، تماماً كما يحدث مع الكثيرين في عصرنا، وتماماً كما حدث منذ أن وُجد الإنسان على الأرض.

أمّا الطائفة الأخرى، وهي طائفة العلماء والمتقين الورعين، فقد كان لها موقف آخر. فهؤلاء لم يبهرهم موكب قارون فحسب، ولم يدفعهم ذلك

لتغيير نظرتهم إلى الدنيا.. بل بقوا متمسكين بمبادئهم وقيمهم وطريقهم رغم الحرمان الذي هم فيه.

هؤلاء كما يحدّثنا القرآن عنهم ﴿... الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ...﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ولأنّهم لم يتحسّروا، ولم يحسدوا. قالوا لمن تحسّر وحسد: ﴿... وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

مثل هؤلاء يقفون كالجبال الراسخة في الامتحانات. يثبتون على إيمانهم ومبادئهم، ولو عُرضت عليهم كلّ الدنيا، وليسوا على استعداد أن يتركوا من أجلها حكماً شرعياً، حتّى لو كانوا في قمّة الفقر.

لقد ادّعى قارون أنّه أوتي ثروته على علم كان عنده، فأي علم هذا الذي كان يدّعيه؟ إنّه علم الطائشين، المغرورين، المتكبرين، العلم المسخّر للفساد والدمار، والذي وُجد ليدمّر لا ليبني وينتج الحياة، فها هو قارون يخسف اللّه به وبداره الأرض، ليكون عبرة أهل زمنه، وأهل الأزمنة اللاحقة من بعده.

مسألة الخسف وانشقاق الأرض وابتلاع ما عليها حدثت مرّات ومرّات. ابتلعت الأرض مدناً وقرى، ومجتمعات. لكن الخسف هنا انحصر في دار قارون. الأرض تبتلعه ومعه خزائنه التي باع دينه ودنياه من أجلها. نادى، صرخ: ساعدوني.. خلصوني. ولكن من يستطيع أن ينقذه من هذا المصير؟ لا أحد.. الآن أنت وحيد يا قارون أمام مصيرك. لا أحد يستطيع أن ينتصر لك. فحتّى الذين كانوا أمس يحسدونك على حظّك العظيم، ويتمنّون شيئاً ممّا كان عندك، حتّى هؤلاء وقد زلزلتهم الحقيقة التي يرونها عند حفرتك، لم يفكّروا أن ينصروك، وها هم أيضاً يتنصّلون من أمنياتهم ومن حسدهم:

الحمدللّه أنّنا لم نكن مثله وإلاّ لوقعنا بمثل ما وقع فيه: فأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ﴿... وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

إنّ قصة قارون يمكن أن تتكرّر وبنفس الصورة في واقعنا. لقد كان بإمكان هذا الإنسان أن يعيش الدنيا، ويكسب موقعاً له في الآخرة، بفتح آفاق حياته على اللّه سبحانه، ووحده المؤمن من يعرف أنّ زخارف الدنيا وخيراتها، ما حصل عليه أو لم يحصل سيتركه في لحظة من لحظات الزمن، ولن يحمل معه في رحلته إلى القبر غير نتائج الامتحانات، أمّا العاقبة فهي للمتقين: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

طالوت
الصبر يصنع النص

اشتهر بنو إسرائيل في التاريخ بالصلف ومعاندة أنبيائهم، وكان لهم مع كلّ نبي قصة ،حكاية. وهذه القصة التي يرويها لنا القرآن الكريم حدثت، عقب رحيل النبي موسى (ع) عن الدنيا، وبعد أن نقل قومه من مجتمع العبودية تحت نير فرعون إلى مجتمع الحرية.

بعد موسى (ع) اغترّ بنو إسرائيل بالموقع الذي وصلوا إليه، لكنّهم سرعان ما راحوا يدفعون ثمن غرورهم: تشتّت شملهم، وضعفوا، وتفرّقوا، وظلّ هذا حالهم إلى أن أرسل اللّه لهم نبياً ليلمّ شملهم، هو النبي شموئيل، الذي لم يرد بالاسم في القرآن الكريم.

إنّ البلاء اختبار اللّه لعباده تارة بالنعمة ليشكروها ويحافظوا عليها، وتارة بالضرّ ليصبروا على ما ينزل بهم، وفي كلا الحالين فإنّ بني إسرائيل لم يشكروا ولم يصبروا، وعندما يتناول القرآن قصة من قصصهم مع أنبيائهم، فإنّه يقدّم لنا تلك الامتحانات والابتلاءات التي مرّ بها هؤلاء كي نتّعظ، وأن نعدّ أنفسنا كي لا نسقط بمثل ما سقطوا فيه.

لقد بدأ البلاء الجديد لبني إسرائيل عندما طلبوا من نبيّهم الذي تجمّعوا

حوله، أن يختار لهم ملكاً أو قائداً، يتوحّدون تحت لوائه، فيحاربون أعداءهم يداً واحدة، لاستعادة وحدتهم وعزّتهم وحريتهم التي فقدوها.

كان النبي شموئيل يعي ويعرف أنّ مجتمع قومه مجتمع مشاكس مراوغ، فكان أوّل سؤال وجّهه إليهم ﴿...**هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ** ...﴾ [البقرة: ٢٤٦] . كان يريد أن يضعهم أمام واقعهم، فهو يعرفهم: أنا أخاف عندما يأتي الملك الذي تطلبونه ويتولّى قيادتكم أن تتراجعوا، وأن تخذلوه، لأنّ الكثيرين منكم يريدون النصر بدون جهد، وبدون تضحيات.

هذه حال الأمم والمجتمعات التي تركن إلى الدعة وحب الراحة، تطلب الحرية والعزّة، لكنّها ترفض أن تبذل الدم أو المال.

بنو إسرائيل كانوا كذلك في ذلك الوقت، لذلك خشي النبي شموئيل نفس الموقف منهم، وهو الموقف الذي وقفوه من قبل مع النبي موسى، حين دعاهم إلى القتال فقالوا له: ﴿... **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [الكهف: ٤٦].

حين واجههم بهذه الحقيقة قالوا له: ﴿... **وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ** ...﴾ [البقرة: ٢٤٦]... جرّبنا فقد أُخرجنا من ديارنا، واستولى الأعداء على أرضنا وأولادنا.

لكن القول لا يمكن أن يصبح واقعاً إلاّ إذا تُرجم إلى فعل وعمل، لذلك دعا شموئيل اللّه أن يرسل إليهم ملكاً فأوحى له سبحانه: ﴿...**بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا**...﴾ [البقرة: ٢٤٧].

لم يكن طالوت رجلاً مشهوراً ومعروفاً في بني إسرائيل، ولا صاحب جاه أو حسب أو نسب، ولا من أصحاب الثروات. كان إنساناً عادياً، لكن له من

القدرة الجسدية، والمقدرة والمؤهلات ما يسمح له أن يخوض المعارك الحربية، وأن يخطط، ويواجه كلّ الظروف الصعبة.

وأعلن شموئيل لقومه أنّ اللّه استجاب لدعائه، وسيرسل لهم طالوت ليكون ملكاً عليهم. هنا يكشفون عن جانب آخر من شخصيتهم: من هو طالوت هذا ليكون ملكاً: ﴿... **أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ**...﴾ [البقرة: ٢٤٧].

لم ينظروا إلى المسألة من زاوية الكفاءة. لم يسألوا عن كفاءة طالوت لتولي المهمة. مباشرة استنكروا أن يُنصّب عليهم ملك لا مال له ولا حسب ولا نسب.

وكما هو الحال اليوم، وكما هو في كلّ العصور، نظروا أيضاً إلى الأمر من زاوية المنفعة والإفادة: إذا كانت هذه هي حال طالوت، فليس من مصلحتهم المادية أن يكون عليهم مثله.

إنّ معايير وموازين الناس، الذين ينظرون إلى قضاياهم المصيرية من نافذة مصالحهم الخاصّة لا تتغيّر ولا تتبدّل. فعندما يأتي حاكم جديد خلافاً لحساباتهم وأرباحهم ومصالحهم، فإنّهم يرفضونه، حتّى لو كان صاحب كفاءة، ويقفون منه موقفاً سلبياً، ويأخذون في التفتيش عن مثالبه ونقائصه ومعايبه، وإن لم يكن عنده ما يُعاب عليه اخترعوا له ما يُناسبه. ومن يكشف بصراحة عن أوراقه منهم يجاهر بحقيقة نواياه: لماذا لا أُختار أنا، أو أحد من عائلتي أو قبيلتي أو حزبي؟

هذه التجربة سقط فيها بنو إسرائيل ولم يكونوا أوّل من سقط في هذا البلاء، ولا آخر من سقط، وهذه هي الشواهد كثيرة في محتمعاتنا على أكثر من

صعيد سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، وحتّى في الرياضة وغير الرياضة. والنتيجة معروفة دائماً: تشتّت الجماعة إلى جماعات، والحزب إلى أحزاب، والتنظيم إلى تنظيمات.

كان طالوت من أُسرة بنيامين الفقيرة المغمورة، لهذا اعترضوا، فقال لهم شموئيل: إنّ اللّه سبحانه هو الذي اختاره: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ومع ذلك لم يقبلوا بهذا القول. أمعنوا في عنادهم، وطلبوا الدليل، كأنّهم لم يطمئنوا كلّ الاطمئنان إلى أنّ طالوت مبعوث من اللّه تعالى ليقودهم، على الرغم من الكلام الواضح والصريح لنبيّهم: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ** ...﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وفي هذا دلالة واضحة على اهتزاز إيمان الذين يجادلون شموئيل النبي.

ويشاء اللّه سبحانه أن يوقع عليهم الحجّة، فأوحى إلى نبيّه بأن يتعهّد لهم بتقديم هذا الدليل، ليجعلهم يمعنون أكثر في عنادهم وصلفهم ويستدرجهم أكثر ليغوصوا في طغيانهم، وكان الدليل هو تابوت العهد، تأتي به الملائكة.

وهذا التابوت هو الصندوق نفسه، الذي وضعت فيه أم موسى ولدها، ورمته في النيل، كي لا تصل إليه يد فرعون فيقتله، وقضت مشيئة اللّه أن تنتشله زوجة فرعون، فترعاه وتحميه، ويتربّى في قصرها. وظلّ الصندوق في قصر فرعون، إلى أن وقع في أيدي بني إسرائيل بعد تحرّرهم من نير العبودية، وبات رمزاً للبركة والقوّة عندهم. وقبل وفاته، وضع فيه النبي موسى ألواح التوراة كما نزلت عليه، ودرعه وأشياء أخرى، وأودعه بما فيه لدى وصيّه يوشع بن نون. وبذلك ازدادت أهميّته عند بني إسرائيل، وكانوا يحملونه

معهم إلى أي معركة تفاؤلاً وبركة به، لكنّهم بعد وفاة موسى ٣ فقدوا حريتهم والصندوق معاً. وها هو شموئيل يعدهم بإعادته إليهم، كدليل صادق على أنّ طالوت هو الملك الذي اصطفاه اللّه سبحانه لهم..

وكان إحضار الملائكة للتابوت اختباراً آخر لإيمان القوم؛ ها هو التابوت معكم، كما كان في أيّام موسى، وفي معاركم السابقة، وفيه سكينة لكم ولقلوبكم، فكيف سيكون تصرّفكم مع طالوت؟ هل ستتخلّون عن الممارسات السابقة وعن المماحكة والعناد؟

وخرج طالوت بجيشه، وأراد أن يختبرهم ليتبيّن منهم الصادقين من المتبذبذبين، والصابرين من غير الصابرين، وشاء اللّه أن يعرّضهم لامتحان جديد. كان الوقت صيفاً، والحر شديد، فاشتدّ عطشهم، وكان على طالوت أن يتيقن من إيمان من معه، ومن طاعتهم، خصوصاً أولئك الذين قبلوا مكرهين بأن يقودهم، وظلّت الشكوك تتحرّك في نفوسهم. لهذا يأمره اللّه بأن يدخلهم في امتحان جديد، فيعلن لهم أنّهم سوف يصلون عمّا قريب إلى نهر: ستكونون بأشدّ حالات العطش والتعب والإعياء، لكن عليكم ألا تشربوا منه كثيراً، فيكتفي الواحد منكم بأن يغرف غرفة بيده وهذا يكفيه، فلا يعبّ الماء عبّاً أو يحمل شيئاً منه معه.

طالوت قائد عسكري، ويقود جيشاً للجهاد، ولا بدّ له أن يتقيّن من طاعة كلّ رجل، ويُمحّص إيمانه: هل هو مستعدّ أن يتنازل عن حاجاته ورغباته، أم أنّه عندما تصل الأمور إلى المساس بهذه الحاجات يبيع إيمانه ويخالف أوامر قائده؟

في مثل هذه المواقف والامتحانات، بعض المؤمنين من يسقط، ويسلّم أسلحته ويستسلم، رغم أنّه كان شديد الإيمان.

ألم يكن عمر بن سعد من المحسوبين على خط أهل البيت (ع). ماذا فعل عندما عُرض عليه مُلك الرَيّ (من مناطق إيران) شرط أن يتخلّى عن الوقوف مع الإمام الحسين (ع) وينضمّ إلى جيش ابن زياد.

لقد اعتذر ابن سعد في بادئ الأمر، وعندما هدّده ابن زياد بأن يتراجع عن العهد الذي كتبه له بولاية الري، بات ليلته يصارع نفسه بين مكاسب الحكم وضريبة التزام الحق والعدل ونصرة الحسين، وسُمع وهو يقول:

فواللّه لا أدري وإنّي لحائر
أُفكّر في أمري على خطريْنِ
أأترك ملك الريِّ والريُّ منيتي
أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

وكم من المؤمنين مثل ابن سعد، عندما تُعرض عليهم الدنيا يتساقطون وينسون إيمانهم، ولا فرق في أن يكون المؤمن في موقع كبير، كموقع عمر بن سعد، أو موقع صغير ومتواضع. فاجتياز هذا الامتحان يحتاج إلى الصبر والإرادة، والثبات، وأين للإنسان المؤمن أن يفوز في هكذا امتحان إلاّ إذا ربّى نفسه تربية إيمانية مستقيمة، تردعه في ساعة التجربة.

كثيرون من جيش طالوت سقطوا عند أبسط امتحان: الصبر لساعات أمام العطش. فخالفوا أمراً إلهياً. الأكثرية منهم شربوا وعبّوا الماء عبّاً.

هؤلاء باتوا خارج المعركة، وكان الفرز الأوّل. أمّا الفئة التي اجتازت امتحان بلاء العطش فإنّها ستواجه امتحاناً آخر. كان طالوت كمزارع يغربل قمحه ليفصل الحبّ عن الزوان والقش. فبعد أن تجاوز بمن بقي معه النهر برز الأعداء بقيادة جالوت جيشاً جراراً قويّاً متراصاً.

هنا، تسلّل الشك إلى إيمان الكثيرين بقدرتهم على المواجهة، فقدوا إيمانهم وثقتهم باللّه، تزلزل هذا الإيمان، حتّى بوجود تابوت العهد معهم. قال الخائفون والمتردّدون: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده.

هذا التباكي والهروب من المواجهة هو نفسه التباكي والهروب الذي شهدناه، عند كثير من الناس، يوم اجتاحت إسرائيل أراضي الوطن، واحتلّت أجزاء منه. كان هؤلاء يقولون نفس القول: لا طاقة لنا بمحاربة إسرائيل وجيشها.

أمّا المؤمنون، الذين كانوا حقّاً مؤمنين من جيش طالوت، فقد كانوا الفئة القليلة المؤمنة بأنّها ستلاقي وجه ربّها، وبأنّ اللّه معها وإلى جانبها، لذلك كانت على يقين من النصر: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه.

هذه الفئة كانت مؤمنة بأنّ اللّه يمكن أن يغيّر المعادلات عندما تصبر وتثبت، وتتحرّك من خلال إيمانها، وبذلك تستطيع أن تواجه كِثرة لا تملك ما عندها من إيمان وصبر وثبات وعزيمة، لأنّ كثرة جالوت كانت تحارب من أجل أن يرضى جالوت، ومن أجل المصالح والمغانم.

أمّا القلّة التي اجتازت البلاء تلو البلاء مع طالوت، فإنّها كانت تجاهد في سبيل اللّه، ومن أجل رضا اللّه، لهذا كان هؤلاء يدعون اللّه أن يفرغ عليهم الصبر، ويثبّت أقدامهم في أرض المعركة، فلا يفكّر أحد في الفرار، وفي هذا إصرار على التمسّك بالإيمان، وخوض هذا البلاء حتّى النهاية. وكانت النتيجة أنّ اللّه لم يترك هذه القلّة وحدها، فنصرها، وسقط جالوت الجبّار بحجر رماه به داوود، الذي كان لا يزال شاباً صغيراً، وقبل أن يبعثه اللّه بعد ذلك نبيّاً من أنبياء بني إسرائيل.

النبي إبراهيم(ع)
هجرة دائمة إلى اللّه

النبي إبراهيم واحد من آنبياء أولي العزم، أدّى دوره الرسالي في أرض بابل.. في العراق، ثم انتقل بعدها إلى فلسطين، وفيها شاء الله سبحانه أن يبتلي هذا النبي، عندما طلب منه أن يذهب بابنه إسماعيل وزوجته هاجر، إلى حيث بيت اللّه الحرام اليوم، ويتركهما هناك.

لم يتردّد النبي إبراهيم (ع)، وضع أهله في بطحاء مكة، لم يكن في المكان لا زرع ولا ماء، ولا شيء غير شجيرات صحراوية هزيلة من دون ظلّ، ووادٍ قاحل تحيط به الجبال والتلال، ففي ذلك الزمن لم تكن الكعبة الشريفة موجودة، وكان هناك مجموعة أحجار من بقايا قواعد، تقول الروايات إنّها من بقايا البيت الذي بناه النبي آدم (ع) وهدمته السيول.

أنزل خليل اللّه أهله، وألقت هاجر على شجرة كساءها، لتظلّل ولدها. وتحين ساعة الامتحان الأصعب، فقد كان على هذا النبي أن يُتابع مهمّته، فحياته ترحال وهجرة دائمة لتبليغ رسالته. قالت له هاجر: أتدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟

كان إبراهيم كغيره من الأنبياء من طينة البشر، في صدره قلب وعواطف

وأحاسيس. وعندما سأل اللّه تعالى أن يهبه ولداً صالحاً، أعطاه إسماعيل وله من العمر سبعون عاماً. والآن، يأمره اللّه أن يأتي بهذا الولد إلى هنا مع أمّه، فهل يتردّد؟

صحيح أنّ الامتحان صعب، لكنّه لن يتردّد في التنفيذ لأنّه يملك كلّ الثقة باللّه، وهو الذي كان شعاره: وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين. قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للّه ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين.

بهذا الإيمان والتسليم للّه تقبّل الأمر، فإبراهيم ومنذ أن بدأ السير في خط اللّه سبحانه، لم يكن في قلبه غير اللّه، لهذا وصفه القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤]. وصاحب القلب السليم هو الذي يلقى ربّه وليس في قلبه أحد سواه.

هنا تبدأ قصة حياة إبراهيم(ع). عند هذه النقطة: أنا أحيا للّه، صلاتي للّه، وكلّ عباداتي وحتّى حياتي وموتي كلّها للّه تعالى. وهذا هو الإسلام وجوهر الإسلام، أن يُسلّم الإنسان حياته وكيانه للّه تعالى، من دون أن يكون له رأي أمام رأي اللّه، ولا قرار بعد قرار اللّه. لذلك لم يتردّد في أن ينفّذ هذا الامتحان، ويواجه هذا البلاء بقلب مطمئن، وبصبر وثبات ويقين تام وكامل.

بعض الناس يفصّلون إيمانهم على مقاس مصالحهم، فهم مؤمنون وفي خط اللّه ما دام هذا الإيمان لا يتعارض مع مصالحهم، وإذا وقعوا في بلاء، وتهدّدت هذه المصالح سرعان ما يتخلّون عن إيمانهم.

أمّا إبراهيم(ع) فلم تكن عنده أي مشكلة في ترك أهله للجوع والعطش، وربّما لأخطار كبيرة، ما دام الأمر بطلب من اللّه تعالى، لأنّه يثق أنّ اللّه لا

يخذل عباده، وعندما يأمرهم بأمر ما فلأنّ في ذلك مصلحة لهم، أو لخط الإيمان، وإذا نهاهم عن أمر فلأنّ فيه مفسدة لهم أو لخطّ الإيمان. لهذا ورد في الحديث: لن تكونوا مؤمنين حتّى تعدّوا البلاء نعمة.

فالمؤمن عندما يُبتلى يظهر إيمانه على حقيقته. وإذا نجح في امتحان التمحيص أعلى اللّه درجته، وموقعه في الحياة نتيجة صبره وثباته، وقوّة إيمانه، وأثابه وعوّضه من أي خسارة، في دار الآخرة.

وهنا، كان النبي إبراهيم يتصرّف انطلاقاً من وحي إيماني، وليس من موقعه أنّه نبي. صحيح أنّ النبي يلتزم بأمر اللّه تعالى، لكن الامتحان لا يخصّه وحده، والنتائج ستترتّب عليه وعلى ابنه وزوجته.

ويرحل إبراهيم وهو يطمئن هاجر: اللّه الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان هو يكفيكم. وتتماسك هاجر. لم تصرخ، ولم تعترض: إذا كان اللّه هو الذي أمرك بذلك، فإنّه سبحانه لن يضيّعنا.

نعم، نجحت في الامتحان، فهي شريكة في البلاء وشريكة في المعاناة، ووقفت موقف المرأة التي تعيش عمق الإيمان، والتي تثق ثقة عمياء باللّه، فضلاً عن موقف المرأة المؤمنة التي تُعين زوجها بالصبر والثبات، فلا تكون عبئاً عليه وعلى تأدية رسالته.

وحين يبلغ إبراهيم(ع) مرتفعاً يُطلّ على موضع البيت الحرام، حيث ترك أهله، يرفع يديه بالدعاء إلى اللّه تعالى: ﴿**رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وتضرب هاجر مثلاً آخر في الثبات، واليقين برحمة اللّه. فقد نَفَد ما معها

من الماء. يشتدّ الحرّ، ويعطش الطفل، فتتلفّت حولها بلهفة: أيُمكن أن يكون في هذه البريّة ماء؟ عليها أن تبحث، ولن تكلّ عن البحث.

وبدأت السعي. هبطت صخرة الصفا، واجتازت الوادي حتّى بلغت أقصاه باتجاه صخرة المروة، وعادت من حيث انطلقت. فعلت ذلك سبع مرات. لم تفقد صبرها وجَلَدها وثباتها. كان قلبها عامراً ثقة ورجاء باللّه. لم تيأس: اللّه لن يضيّعنا.

ها هي تُقبل على إسماعيل في نهاية الشوط السابع.. الطفل لا يبكي.. إنّه يلهو بماء يتفجّر من الأرض بين قدميه.. وأسرعت لتتأكّد ممّا ترى.

لقد حدثت المعجزة، وها هي دعوة إبراهيم(ع) التي ستجعل أفئدة الناس تهوي إلى هذا المكان وتقصده، حتّى قيام الساعة.

وراحت الأمّ تزمّ الماء وتجمعه، كي لا يغور في الرمال حرصاً على كلّ نقطة منه، لكن الماء يظلّ يتفجر، وسيكون هذا النبع المبارك محط الرحال، ومهوى الأفئدة كما دعا إبراهيم (ع) ربّه. وكما تروي الأحاديث أنّ قبيلة «جرهم» كانت نازلة في منطقة قريبة في عرفات، ولفت نظرهم طيور تعكف على موقع ذلك الماء، فقصدوا المكان، وكانوا أوّل من استقرّ هناك.

ومع كلّ خطوة يخطوها الحاج في سعيه بين الصفا والمروة، ما زلنا نستعيد صبر هاجر، وإيمانها بأنّ الإنسان الذي يثق باللّه حقّ الثقة لا يُمكن أن يتركه سبحانه أو يخذله، وهو الذي يقول لنا في كتابه الكريم: ﴿... **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ١-٢].

جاء بعض الناس إلى الإمام الصادق (ع) فسألوه: لماذا ندعو اللّه ولا

يُستجاب لنا. فقال لهم: إنّكم تدعون من لا تعرفون. فمن يعرف اللّه يظلّ على يقين ثابت أنّ اللّه وحده من بيده الأمر والتدبير. فإن يسّر لك أمرك إنسان ما، أو زعيم أو نائب، فإنّ هذا التيسير هو بتدبير من المولى عز وجل. واللّه لا ينظر إلى ألسنتنا، يريد أن يرى قلوبنا، وهو لا ينزل لنا الأموال والخيرات بسلّة من عنده إن دعوناه، بل يسخّر أشخاصاً ليكونوا الواسطة، وهكذا من يتّق اللّه يجعل له مخرجاً.

والتظاهر بالإيمان ليس من الدين في شيء. وحدها النيّة الخالصة والصادقة، التي تُترجم إلى سعي وعمل تُظهر حقيقة الإيمان. أمّا القشور فسرعان ما تسقط عند التجربة والامتحان.

لقد كانت حياة إبراهيم سلسلة من الابتلاءات والامتحانات، وكان يخرج من كلّ ابتلاء وامتحان أكثر ثقة باللّه، راسخ العزم، وأكثر تصميماً على متابعة تبليغ رسالته. وكان أعظم ما امتُحن به حين يرى في المنام أنّ اللّه يأمره بذبح ابنه الوحيد، فينهض مرعوباً، لأنّه يعلم أنّ رؤيا النبي هي حقيقة، وليس من وساوس الشيطان.

وتتكرّر الرؤيا ثانية وثالثة، وكان ذلك تأكيد على ضرورة تنفيذ الأمر فوراً.

أيُّ امتحان أصعب من هذا الامتحان، لإبراهيم وهاجر وإسماعيل، الذي بات الآن غلاماً قويّاً يافعاً؟

وكان على إبراهيم ثانية أن يضع مشاعر الأبوة جانباً، والامتثال لأمر اللّه تعالى، من دون تردّد. أطلع ولده على الأمر، كما يُخبرنا القرآن:﴿... **قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى** ..﴾ [الصافات: ١٠٢]. ها هو يختبر ولده: فانظر ماذا ترى، ماذا تظن، وماذا ستفعل. كان إسماعيل

نسخة من أبيه، وتعلّم خلال حياته القصيرة الصبر والإيمان والثبات، وكان قطعة من إبراهيم فكراً وروحاً وعبودية للّه. لذلك لم يخيّب ظنّ أبيه. ردّ بثبات وعزم: ﴿... **قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٢].

هنا، يُقدّم لنا إسماعيل نموذجاً لأقصى حالات الخضوع لأمر اللّه وطاعة الأب. فهو لم يصرخ، ولم يتوسّل، أو يشكّك أو يعترض. ظلّ كتلة من الرضى والتسليم بأمر اللّه، بل أكّد أنّه سيتحمّل مصيره بصبر يُماثل صبر أبيه على هذا البلاء. وهذا يعيد إلينا صورة الإمام الحسين (ع) في كربلاء، كما أنّ صبر الأمّ سيذكّرنا بصبر زينب وصبر كلّ الأمهات على أرض الطف.

ويقصد إبراهيم (ع) مع ولده أرض منى، ويطلب منه إسماعيل أن يُحكم شدّ الحبل حول يديه ورجليه، وأن يشحذ السكين جيّداً كي يكون الأمر سهلاً عليه وعلى أبيه.

وفي اللحظة الحاسمة لم يتردّد إبراهيم أيضاً. يمرّر السكين على عنق ولده مرّة، ثمّ مرّة ثانية لكن السكين لم تقطع.

هذه اللحظة، من أكبر الامتحانات التي يُمكن أن يُبتلى بها أب. السكين لا تقطع، لكن إبراهيم يحاول ولا يتوقّف بدعوى أنّ السكين لا تعمل. كان يصرّ على تنفيذ أمر اللّه، وولده ساكن مطمئن بين يديه. لقد كان الهدف إخلاء قلبه من أي حبّ لغير اللّه، وجعله مسكوناً بعشق واحد هو عشق اللّه.

في تلك اللحظة كان إبراهيم يعلّم الإنسانية جوهر الإسلام، وحقيقة الإسلام.

لقد صار إبراهيم (ع) قدوة، وكذلك صار إسماعيل. ومثل هذا الامتحان لا يقدر عليه إلاّ رجل من طراز إبراهيم، وفتى مثل إسماعيل.

وورد في بعض الروايات أنّ جبريل هتف أثناء الذبح: اللّه أكبر اللّه أكبر. وهتف إسماعيل لا إله إلاّ اللّه واللّه أكبر، فيما كان إبراهيم يهتف: اللّه أكبر وللّه الحمد. وهي نفس التهليلات والتكبيرات التي نردّدها اليوم في عيد الأضحى المبارك.

وتحدث المعجزة ثانية وتتكرّر. ويأتي النداء من اللّه: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٧].

هذا هو الفرج يأتي من اللّه، يقدّمه قرباناً بدلاً من ولده، وليصير ذلك سُنة من سنن عبادة الحج. وبذلك يرسم خليل اللّه مع أهله، خلال كلّ هذه الامتحانات طريق عبادة الحج بطقوسها وفلسفتها وروحها، والهدف الأساس إخلاء القلب من أي حبّ لغير اللّه سبحانه، وجعل هذا الحب معياراً لأي حب آخر بين الناس.

أهل الكهف
مدرسة وقدوة في الإيثار

لطالما كان موضوع المكانة الاجتماعية والجاه والمنصب من البلاءات التي فتنت الإنسان، بل لعله مكمن الداء لفساد الإنسان أفراداً ومجتمعات. وقليلة هي النماذج الإنسانية التي تخلّت طائعة عن منصب أو مكانة رفيعة لتنصر الحق، أو لتواصل تمسّكها بخط اللّه والإيمان. ويقدّم لنا القرآن الكريم نموذجاً مُتألّقاً لهذه الفئة في قصة أهل الكهف.

كان أصحاب الكهف مجموعة من الفتية والشباب، عاشوا في مرحلة ما بعد السيد المسيح (ع) واهتدوا إلى تعاليمه ورسالته. ولم يكن هؤلاء أناساً عاديين، فهم من عِلية القوم ووزراء وقادة، ويعيشون حياة مترفة هانئة، وعندما شاء اللّه أن يهتدوا إلى طريق الإيمان، ويكفروا بعبادة الأوثان، بدأت معاناتهم مع ملكهم دقيانوس الذي كان حاكماً جباراً طاغية، ويعتبر نفسه راعياً وحارساً للإوثان التي يعبدها أهل المملكة.

كان يمكن أن يخفي هؤلاء إيمانهم ليحافظوا على مكاسبهم ومناصبهم الدنيوية، لكن الإيمان قول وعمل، فالكلام سهل والمحكّ هو التجربة كما يقول القرآن الكريم: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا**

﴿يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]. وهؤلاء الفتية كانوا صادقين في إيمانهم، وصادقين في عزمهم على ترجمة هذا الإيمان إلى عمل، لذلك قال اللّه فيهم: ﴿... إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

فالإيمان الصادق والصحيح يقود الإنسان إلى أن ينظر إلى موقعه، ودوره ومسؤوليته في المجتمع. لهذا يسألنا اللّه سبحانه في كتابه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

إذاً الإنسان مسؤول عن ماله، وحياته، وعمره، فعمرك هو رأسمالك الذي أعطاه اللّه لك، وسيسألك كيف قضيت أيامه وسنواته، هل قضيتها في اللهو، وفي كثير من القضايا التي لا فائدة منها؟ وأنت مسؤول عن موقعك الذي تكون فيه. وهؤلاء الفتية، في قصة أصحاب الكهف، كانوا في مواقع حسّاسة، ولهم تأثير في حياة الناس، ولأنّهم مؤمنون بربّهم فقد اعتبروا أنّ قيمة مواقعهم هي مهمّة بمقدار الخدمة التي يقدّمونها لرسالتهم، وأنّ من مسؤوليتهم القيام بأي عمل يخدم دينهم وإيمانهم. لماذا؟ لأنّهم يعتبرون أنّ خدمة رسالتهم هي الأساس في حياتهم، وأنّ الدين هو جوهر حياتهم، وأنّ عملهم من أجل هذا الدين هو ما يُعبّد طريقهم إلى الآخرة.

لهذا، راح هؤلاء يهدون الناس إلى الإيمان، لم يختبؤوا وراء مناصبهم، بل راحوا يتحرّكون بين الناس. وبدأت حركتهم تثمر في إزالة صدأ الشرك من قلوب من اهتدى بهم. ويشعر دقيانوس بوجود حركة غير عادية في مدينته، فيأمر أعوانه بالتحرّي عن أسباب هذه الحالة، ومن يقف وراءها. وأخيراً يعرف الحقيقة، ويكتشف أمر هذه العصبة المؤمنة، فيضعهم أمام خيارين:

الوقوف إلى جانبي فأُبقيكم في مناصبكم، بعد أن تتنصّلوا من كلّ هذه الرسالة، أو أجرّدكم من هذه المناصب وتتعرّضون للسجن والتعذيب حتّى تعودوا إلى الإيمان بآلهتنا.

كان الخياران صعبيْن. كان أحلاهما مرّاً بالنسبة لأي إنسان يزن الأمور بميزان المصلحة والمنفعة، لكن معيار هؤلاء الفتية كان واضحاً أمامهم: الحفاظ على إيمانهم ورسالتهم، والفرار بدينهم إلى مكان آخر، يستطيعون فيه إكمال رسالتهم.

ذات يوم، جاء رجل إلى رسول اللّه (ص)، وقال له: أنا أريد أن أترك هؤلاء الناس (أي المجتمع الذي يعيش فيه) وأذهب إلى جبل أتعبّد فيه، فقال له الرسول(ص): لَصَبْر أحدكم ساعة يعمل في موقعه من أجل أن يهدي الناس خير من عبادته خالياً أربعين سنة.

من الطبيعي أن يحمل الإنسان مسؤوليته في مجتمعه، ولا يفرّ من ساحة التحدّي، لكن عندما يوضع بين خيارين: ترك دينه أو أن يغادر أرضه ويُهاجر، فعليه أن يغادر عملاً بقول اللّه تعالى: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾ [العنكبوت: ٥٦].

لهذا تحدّث اللّه أيضاً عن أولئك الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم: ﴿**... قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ٩٧].

مثل هذه الهجرة ليست فراراً من ساحة المواجهة، ولطالما أخذ عدد من الأنبياء نفس الخيار، فالنبي إبراهيم (ع) عندما شعر أنّ دعوته في أرض بابل لن تثمر، في ظلّ وجود ملك طاغية كالنمرود، قال إنّي مهاجر إلى ربّي. أريد أن

أقصد أرضاً أدعو فيها الناس إلى عبادة الواحد الأحد، وأؤدّي دوري. وهذا ما فعله أيضاً الرسول (ص) عندما هاجر من مكة، بعد أن ضيّقت عليه قريش الحصار، وقصد المدينة المنوّرة، وأسّس فيها أوّل قاعدة لمجتمع إسلامي.

هنا، لا يأتي خيار الهجرة بناء لحسابات أهل الدنيا: إذا هاجرنا نخسر كذا من الأرض، أو البيوت أو الأرزاق، وفي المهجر يمكن أن نربح كذا وكذا.

خسارة المال والأرزاق يمكن أن تعوّض منها، والحياة يمكن أن تستمر. لكن، كيف يمكن لك أن تعوّض من خسارة دينك وإيمانك، في ظل حكم غاشم، أو قوّة طاغية تجبرك على أن تتنازل عن هذا الإيمان بالقوّة والإكراه؟

إنّه ابتلاء صعب، وامتحان قاس ما بعده امتحان، لهذا ورد في الحديث الشريف: من فرّ بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شِبْراً من أرض، استوجب الجنة وكان رفيق النبي إبراهيم (ع) ورفيق النبي محمد (ص).

فالرسول (ص) جاهد في مكة ثلاث عشرة سنة، بعد أن بُعث، وعندما رأى أنّ مستقبل دعوته يفرض عليه الانتقال إلى أرض أخرى، هاجر مع من آمن به إلى المدينة. كان يستطيع أن يحافظ على حياته في مرحلة ما، ويرتّب وضعه مع قريش، لكنّه كان يُفكّر بمسؤوليته تجاه الرسالة. ومن هذا الموقع، موقع القيام بما يُمليه عليهم إيمانهم، قرّر هؤلاء الفتية مواصلة هذا الابتلاء، ومواجهة هذا التحدّي بالصبر والثبات والوعي.

وهذا درس تربوي آخر، نتعلّمه من أصحاب الكهف، فاللّه يُريد لنا أن نجعل من مبدأ العمل الصالح برنامجاً مستمراً لحياتنا، وأن نواجه بلاءاتنا بصبر وثبات، وندقّق في أنفسنا ونسأل: هل نحن جاهزون دائماً، وفي كلّ لحظة للمواجهة؟ وإذا لم تكن النفس كذلك فعلينا أن نُعيد النظر في ترتيب

أوضاعنا، لأنّ الإنسان المؤمن مُمتحن، وقيمة الحياة عنده هي بمقدار ما يحصد من نتائج تصبّ في مصلحة الإيمان، وتُرضي اللّه، وتُحقّق الغاية من الحياة.

ومن حقائق الإيمان وثوابته، التي تظهرها لنا قصة أهل الكهف، أنّ الإنسان الذي يضع خطواته ومسيرته في خط اللّه سبحانه، فإنّ المدد الإلهي سيشمله. فعندما واجه هؤلاء طغيان ملكهم وأعوانه، رغم أنّهم كانوا عصبة قليلة، لم يتركهم اللّه، شملهم برحمته وأعانهم، والالتفات إلى هذه الحقيقة ينير القلب بنور الإيمان الصادق، ويحفظه من الذنوب، ويعصم أي فئة مؤمنة من الذوبان في محيطها إذا كان فاسداً، ولا تستسلم، وإن كانت أقلية صغيرة، إلى الأكثرية مهما كانت قويّة، فطريق الحق غالباً ما يكون مملوءاً بالعقبات، وبدون معونة من اللّه يصعب على المؤمن قطعُ هذا الطريق.

مثل هذه العقبات والابتلاءات كانت كثيرة أمام أصحاب الكهف: التخلّي عن المناصب، والجاه، وحياة الترف، ومواجهة الملك وأعوانه، وتعريض حياتهم للخطر. لهذا يصف لنا القرآن الكريم في مستهل قصّتهم ما سيواجههم بأنّه امتحان وابتلاء: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الكهف: ٧].

وكانوا عند حسْن ظنّ اللّه بهم، ونجحوا في اجتياز كلّ هذه العقبات والإغراءات، وها هم يقرّرون الفرار بدينهم، واللجوء إلى كهف ليعيشوا فيه موقتاً. وفي الطريق، يلتحق بهم راعٍ وكلبه.

لقد شاء اللّه سبحانه وتعالى أن يهدي ذلك الراعي إلى طريق الحق، ليكون آية أخرى، وليقول لنا إنّ السالكين في هذا الطريق لا يُصنّفهم اللّه حسب

مراتبهم ومناصبهم وطبقاتهم الاجتماعية، لأنّ أبوابه مفتوحة أمام كلّ الناس فقراء كانوا أم أغنياء، ووزراء كانوا أم رعاة.

وتتوالى الدروس التي نتعلّمها من هذه القصة، فبعد أن أوى الفتية مع الراعي والكلب إلى الكهف، توجّهوا إلى اللّه بطلبيْن: ﴿**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ [الكهف: ١٠].

الكهف ليس مكاناً صالحاً للسكن، فهنا الظلام والبرد، وخطر الوحوش، وغياب الماء والطعام. وعندما يُوضع المؤمن في موقف أو مكان، ولا يعرف ما سيتعرّض له من أخطار أو مفاجآت، فإنّ أوّل ما يلجأ إليه هو الدعاء إلى اللّه سبحانه. وبقدر ما يكون الإيمان باللّه تعالى عميقاً وصادقاً، يسلم الإنسان كلّ أموره إلى الله، ويتركها بين يديه.

فتية الكهف قطعوا رجاءهم بأي شيء، وبأي كائن آخر سوى رحمة اللّه، ولَكَم كانت هذه الرحمة واسعة، فقد سخّر لهم اللّه كلّ وسيلة ليكونوا في مأمن وراحة، يُسْلمهم إلى النوم ثلاثمئة وتسع سنين، كانت الشمس خلالها إذا طلعت تميل عن يمين الكهف، فلا يصل الضوء إليهم مباشرة، وكذلك كانت تفعل عند غروبها، وبذلك ظلّوا بالفجوة التي رقدوا فيها بعيدين عن الأنظار، وعن أشعة الشمس.

عندما ينام أحدنا يُغمض عينيه، وإلاّ استحال عليه أن يعرف طعم النوم. وإذا طال رقودنا ولم ننهض ألا تتهرّأ جنوبنا وجلودنا، ويتعطّل فينا عمل كبد أو رئة أو قلب؟

نوم فتية أهل الكهف دام ٣٠٩ سنوات، وظلّوا أصحّاء، ولم يكن نومهم نوماً عادياً، فقد استجاب اللّه لدعائهم، وبسط عليهم رحمته وكان حالهم

كما يصفهم القرآن الكريم: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ...﴾ [الكهف: ١٨].

فهم كأيّ نائم حيّ يحتاج إلى أن يتقلّب من جنب إلى جنب، لذلك وكّل اللّه إلى ملك أن يؤدّي هذه المهمة، لتحتفظ أجساهم بعملياتها الحيوية، لذلك كان من يراهم يحسبهم أشخاصاً مستيقظين، فأعينهم مفتوحة مثل الإنسان اليقظ، وكلبهم باسط ذراعيه في مدخل الغار، وكلّ هذا كي لا يقترب منهم أي وحش، باعتبار أنّ الحيوان يخاف الإنسان اليقظ. وباختصار كان منظرهم يدخل الرعب في أي إنسان يقترب منهم ويراهم، فيفرّ منهم رعباً.

وكان في نومهم طول هذه المدّة، ثمّ إيقاظهم حكمة وآية إلهية. فبعد أن بعثهم اللّه من نومهم سيسألون نفس السؤال الذي يطرحه الإنسان على نفسه أو غيره عن المدّة التي قضاها في قبره، وسيكون الجواب هو نفسه: ﴿... لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...﴾ [الكهف: ١٩]. وفي هذا إشارة إلى أنّ الإنسان عندما يموت ثمّ يُبعث إلى الحياة، لا يحسّ بمرور الزمن. لذلك كان هؤلاء الفتية يظنّون، بعد استيقاظهم، أنّهم لم يناموا إلاّ يوماً أو بعض يوم، وكانوا حريصين على أن لا يُعرف مكانهم حين قرّروا أن يبعثوا أحدهم إلى المدينة، كي يشتري لهم طعاماً: إنتبه.. خذ قطعة النقود هذه، واشترِ لنا طعاماً طاهراً، وكنْ حذراً كي لا يشعرنّ بك أحد فيُعرف مكاننا، ونُرجم أو يُجبرونا على العودة إلى دين الشرك.

ويُفاجأ الرجل حين يدخل المدينة: كلّ شيء فيها قد تغيّر وتبدّل من ثياب، وأبنية، ووجوه. وحين يقدّم قطعة النقود التي يحملها إلى البائع يستغرب هذا بدوره، فهذه النقود بطُل التعامل بها، فهي من عهد دقيانوس، وعليها صورته،

ثمّ إنّ ثياب الرجل الماثل أمامه هي من ذلك العهد البائد أيضاً!.

باختصار، عرفه الناس من هذه القرائن، ومن غيرها أنّه واحد من الفتية الذين تواروا من وجه دقيانوس قبل ٣٠٩ سنوات، فقد ظلّت قصّة هؤلاء الفتية حيّة، تتناقلها الأجيال في المدينة، التي باتت الآن مدينة مؤمنة، وعلى دين السيّد المسيح (ع).

ويعرف القادم من الكهف أنّه ورفاقه لم يناموا يوماً أو بعض يوم، وأنّ ما سعوا إليه قد تحقّق.

ما زرعه هؤلاء الفتية لم يذهب هدراً. وهذا درس تربوي آخر تقدّمه لنا قصّتهم. بذرة الإيمان عندما تزرعها في نفس طيّبة لا بدّ أن تثمر، وحبّة القمح عندما ترميها في الأرض الخصبة ستعطيك سنابل. فحركة هؤلاء الفتية شكّلت منعطف التغيير. فرّوا بدينهم، ولطالما تركوا وراءهم أسئلة حرّكت المياه الراكدة في مجتمعهم: فتية أثرياء، مُنعّمون، مترفون، وأصحاب مناصب عالية، لماذا يتركون كلّ ذلك؟

مثل هذه الأسئلة ستكون الصدمة التي تُحرّك الغافلين، وتُحرّك كلّ المُبتلين بالفقر أو الثراء، والمبتلين بالسعي لزخارف الدنيا أو المسحوقين تحت وطأة الظلم والقهر. لم تذهب هجرتهم سدى، والبذرة التي تركوها ستنمو، وسينتصر الإيمان على الشرك.

وإذا كان هؤلاء الفتية قد تحوّلوا إلى مشعل هداية يوم هجرتهم، فإنّهم الآن آية يبعثها اللّه إلى الناس، وسيظلون آية للأزمنة القادمة. فقد انتشر خبرهم في المدينة، وعادت الأسئلة الكبيرة لتضجّ في أذهان الناس: كيف فرّوا، وكيف ظلّوا أحياء، وكيف ناموا كلّ هذه المدّة، فها هم الآن يعودون إلى الحياة. ألا

يعني هذا أنّ نومهم كان أشبه بالموت، وأنّ يقظتهم أشبه بالبعث؟

لقد كانت المسألة مستحيلة عند ضعيفي الإيمان. مثل هؤلاء لم يصدّقوا أنّ الإنسان يمكن أن يعود إلى الحياة بعد الموت، إلاّ أنّ حال هؤلاء الفتية هو دليل قاطع وآية ملموسة، لا يُمكن انكارها، وفيها تأكيد أنّ وعد اللّه حق، فهو الذي يميت وهو الذي يحيي ويبعث من في القبور، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، فالذي يجعل أناساً ينامون ٣٠٠ سنة، ثمّ يوقظهم ويبعثهم، ويعودون إلى حياتهم الطبيعية قادر على أن يحيي أناساً ماتوا منذ آلاف السنين، وإلى هذا يشير القرآن: ﴿**وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا** ...﴾ [الكهف: ٢١].

ولا تنتهي دروس هذه القصة عند هذا الحد. يعود رفيقهم من المدينة ويخبرهم بتحوّل الناس عن عبادة الأوثان. ومن باب الكهف يرون أهل المدينة وهم قادمون صعوداً في الجبل نحوهم، بينهم المصدّق للمعجزة، والذي ما زال يُشكّك فيها. هنا يعيش الفتية امتحاناً آخر، فقد اطمأنّوا إلى نتيجة جهودهم وحركتهم، فها هي المدينة باتت مدينة مؤمنة، وهم جاهدوا لنيل رضا اللّه، وتثبيت رسالة الإيمان في النفوس، فأي هدف يبتغونه من الحياة بعد ذلك، هل يطلبون حياة الرغد والهناء وهم الذين خاضوا كلّ ابتلاءاتهم لوجه اللّه؟

وشاء اللّه سبحانه أن يأخذوا قراراً آخر: دعوه، وناشدوه أن يأخذهم إليه ويُميتهم كي لا يتحوّلوا فتنة لضعاف الإيمان، وكان لهم ما أرادوا. ويصل الناس فيجدونهم وقد فارقوا الحياة.

وبالطبع، ستتباين مواقف الناس بشأن مصير جثامين هؤلاء الفتية. قليلو

الإيمان بالبعث وباليوم الآخر يقترحون: نبني عليهم بنياناً، وتنتهي القضية عند هذا الحد، فيُنسى أمرهم.

أمّا الذين كانوا في خطّ الإيمان فقالوا: نتّخذ عليهم مسجداً كي يبقى ذكرهم خالداً عند الأجيال، ويتذكّر الناس حادثة نومهم وبعثهم كدليل وآية، ومعجزة على قدرة اللّه أن يعيد الإنسان إلى الحياة بعد الموت.

ويحدّثنا القرآن عن جانب آخر من جوانب الجدل بين الناس حولهم، حين راحت جماعة منهم ترجم بالغيب عن عددهم: هل كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، أو خمسة سادسهم كلبهم، أو سبعة وثامنهم كلبهم؟

وسواء كان هذا الجدل قد حدث عند العثور عليهم، أم بعده، وأمام الكهف أم في مكان آخر، فإنّ اللّه أراد أن يعلّمنا أيضاً درساً آخر: مثل هذا الجدل عقيم، ولا فائدة منه، فلماذا الاختلاف والجدل حول قضية، لا نملك الجواب عنها، ولا يترتب عليها أي نتائج عملية بالنسبة لأي إنسان. إنّه نوع من العبث والعناد، فيما المطلوب من الإنسان أن يتحمّل مسؤولية دوره في الحياة، ولا يتلهى بالقشور. ومثل هذا الجدل هو من طبيعة الإنسان الذي لا يسعى إلى الحقيقة، بل إلى إثبات رأيه أو موقفه فقط، بهدف التسلّط على الآخرين أو قهرهم. لهذا يصف اللّه الإنسان بقوله: ﴿... **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا**﴾ [الكهف: ٥٤]، فلماذا الجدل في أمور كهذه وأنت لا تعلم الغيب. وكم من الناس مصابون بهذا الداء، لأنّهم مُبتلون بهاجس إثبات الذات، ومصادرة الحقيقة لحسابهم.

وينهي القرآن قصة أهل الكهف بتأكيده قاعدة سلوكية للإنسان المؤمن:

﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ...﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]. فأمورنا مرهونة بأمر اللّه سبحانه ومشيئته. فاللّه يريد منّا أن نسعى بعد أن نتوكّل عليه. وما قولنا إن شاء اللّه سوى دعاء للّه، وسوى تذكير للنفس عند كلّ وعد نعد به، أو عمل ننوي القيام به، لأنّ الإنسان لا يملك من أمره شيئاً، وكلّ ما هو عندنا هو من عند اللّه.

وبذلك تتحوّل قصة أهل الكهف، خلال مراحل ابتلاءاتهم إلى مدرسة تربوية في الثورة على الباطل والانحراف، ولا عبرة في أن نكون قلّة أو كثرة، فالمهم هو الصمود، والاعتماد على مشيئة اللّه، الذي لا ينسى المؤمنين الصادقين، ويهيء لهم دائماً من أمرهم رشدا.

قابيل وهابيل
أوّل جريمة وأوّل قبر

إنّ الحسد من الخصال المذمومة، وهو أحد الشرور التي دعانا القرآن الكريم أن نتعوّذ باللّه منها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق].

تُرى، لماذا دعانا اللّه إلى أن نتعوّذ به من الحسد، ولماذا قرنه بشرّ ما خلق؟

يقول الإمام الباقر (ع): إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب.

وما كان الله ليدعونا إلى التعوّذ به من هذه الآفة لو لم تكن حالة شيطانية، لا تتوقف آثارها عند الاعتراض على حكمة اللّه، فأوّل دم سُفك على الأرض كان بدافع من الحسد، وذلك عندما قتل قابيلُ أخاه هابيل، كما يرويها لنا القرآن الكريم في سورة المائدة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا

﴿يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

وأنت تقرأ القصة، تبدو لك في مشاهدها وحواراتها كأنّها قصة معاصرة، وتحدث في أي مجتمع، وفي أي زمان ومكان، فعندما يغيب الإيمان يصبح من السهل على الحسد أن يطلّ برأسه، وعندما يُسمح للحسد بأن يمسك بتلابيب الشخص، عندها لا يمكن التحدّث عن إيمان وقيم وروادع ضمير. يصبح كلّ تصرف مُباحاً.

يومها، لم يكن على الأرض غير النبي آدم (ع) وعائلته. ومن الطبيعي أن لا يكون آدم قد غفل عن تربية ولديه تربية إيمانية. وشاء اللّه أن يضعهما تحت التجربة ليختبر ثبات هذا الإيمان، وهكذا طُلب منهما أن يُقدّم كلّ واحد قرباناً إلى اللّه. والقربان نوع من العبادة، وهو كلّ شيء يحصل به التقرّب إلى اللّه، وطلب رضاه سبحانه وتعالى.

صحيح أنّ آدم (ع) نبي، لكن ليس معنى ذلك أنّ ابنه هو نسخة مكرّرة عنه، وليس كلّ ابن نبي يكون بالضرورة مؤمناً، وكلّ ابن مؤمن يرث من أبيه إيمانه وتقواه، فهذا ابن نوح عندما اكتسح الطوفان الأرض، رفض دعوة أبيه للركوب في السفينة. ناداه نوح: ﴿... يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، لكنّه تمسّك بكفره وعناده فكان من الغارقين. فالإيمان ليس مجرد فكرة، وليس مجرد انتماء إلى عائلة مؤمنة، ومسألة تقديم القربان كانت المحك الذي أظهر حقيقة إيمان كلّ من قابيل وهابيل. فهذه العبادة، شأنها شأن الصدقة أو الحسنة، هي عطاء. وأنت عندما تعطي وتقدّم شيئاً تقرّباً إلى اللّه سبحانه، فإنّ قيمة هذا العطاء تكون بقدر تقواك، وحرصك على رضا

اللّه، لأنّ الإنفاق عطاء، والعطاء جزء من الحب، ومن يحبّ أكثر يقدّم أكثر إذا استطاع.

ما الذي حدث مع ولدي آدم؟

تذكر الروايات أنّ هابيل اختار من مزرعته كبشاً هو أفضل ممّا عنده. أمّا قابيل، فاكتفى بأن تناول قبضة من سنابل القمح.

أليس هذا هو مماثل لما يحدث في بعض مجتمعاتنا: كثيرون عندما يريدون أن يقدّموا صدقة أو حسنة، لا يفتحون خزائنهم، يسرعون إلى لملمة ثياب أو متاع لم يعودوا بحاجة إليه. فالمقاعد التي باتت قديمة نحملها إلى الجامع أو الحسينية، والطعام المطبوخ «البائت» منذ أيام نتصدّق به على محتاج أو مسكين، فيما الإيمان أن تعطي وتنفق ممّا هو أفضل ما عندك، وممّا تحبّ وتحرص عليه. هذه هي مدرسة الرسول (ص) ومدرسة الأئمة (ع)، الذين كانوا ينفقون أحبّ ما عندهم. ولطالما نبهنا اللّه إلى هذا الأمر: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ...**﴾ [البقرة: ٢٦٧].

كان بإمكان قابيل أن يكون أكثر جوداً وكرماً، وحرصاً على نيل رضا اللّه، لكنّه أمسك يده، فاختار أردأ ما عنده من الرزق، وأقلّه، وبيّنت التجربة مدى ضحالة إيمانه. وكانت النتيجة أنّه سقط في هذا الامتحان، ولم يقبل اللّه سبحانه ما قدّم، فقد ضيّق من دائرة إيمانه، وأجبره بخله على أن ينسى وجه اللّه عند تأدية عبادة تتطلب منه التخلّي عن الحرص والشحّ والأنانية.

وبدلاً من أن يعيد النظر في إيمانه وتقواه، وصلته باللّه، فيُحاسب نفسه لأنّ التجربة قد تتكرّر، ذهب قابيل في الاتجاه المعاكس.

إنّ محاسبة النفس بعد كلّ تجربة باب من أبواب التوبة والنجاة، فهي فرصة لكي نعيد حساباتنا، ونقوم بعملية نقد لأدائنا، ولمستوى ثباتنا على إيماننا واستقامتنا، فإذا اختار الإنسان خط اللّه وندم، قرّع نفسه على ما فعل، استطاع أن يلجم هذه النفس في أي ابتلاء آخر، وإلاّ فلت زمامها من يده، وباتت المعصية الصغيرة تودي به إلى معصية أكبر، وبذلك تسلّمه للأدهى والأعظم، وهذا ما حصل مع قابيل.

أنظر كيف تسلسل المشهد: حسد أخاه على ما ناله من فضل عند اللّه، وسلّمه هذا الحسد إلى حقد أعمى بصره وبصيرته، وبدل أن يتقبّل حكم اللّه بالخضوع واجهه بالتمرّد والاحتجاج، وبات ينظر إلى أخيه أنّه هو السبب، لم يعد يستطيع رؤيته أمامه وهو ينال هذه الحظوة عند اللّه.

وصارت جذوة الحسد في قلب قابيل تكبر وتتعاظم، كما تكبر كرة الثلج، أنسته إيمانه، وأنسته أنّ هابيل أخوه.

والحاسد عندما يحسد يصبح حسده مشكلة للذين يحسدهم، إذ يحوّلهم إلى أعداء مكروهين، ومشكلة لنفسه، لأنّه يعيش في كلّ لحظة غليان الحقد في قلبه، لهذا يقول الإمام علي (ع): «**للّه درُّ الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله**». فكم من حسود جلب لنفسه داء السكري أو داء القلب، بسبب هذا الغليان الذي لا يهدأ في نفسه.

والحاسد لا يشفيه من حسده إلاّ زوال النعمة عن المحسود، كما يقول الإمام، لهذا التفت الإسلام إلى هذه الناحية، في إطار التربية الإيمانية لشخصية الإنسان، فحثّ على الغِبطة كبديل أخلاقي للحسد. فقد يرى عالِم أو رجل سياسة شخصاً صار ذا سمعة ومكانة بين الناس، نتيجة جهده وسعيه

وإيمانه الصادق. وبدل أن يحاول إسقاط سمعته، أو الإساءة إليه، أو نسج المؤامرات لتحطيم مكانته وموقعيته، فإنّه يسلك خط الإيمان، ويسأل اللّه أن يُديم نعمته على ذلك الرجل وأن يعطيه كما أعطاه، ويرزقه كما رزقه. تلك هي الغبطة.

دخل رجل إلى مسجد رسول اللّه (ص) وراح يدعو: اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد بعدنا، فقال له الرسول (ص): «**حَجَرتَ واسعاً، أي ضيّقت، فرحمة اللّه أوسع من أن يحدّها حدّ**».

هذه هي الروحية التي سعى النبي (ص) أن يربّي عليها أصحابه. فالحسد حالة شيطانية، متى تملّكت بتلابيب الإنسان كانت مِقْنصة إبليس الكبرى، كما يقول علي (ع)، وهي التي حوّلت قابيل إلى أن يصبح أوّل إنسان يقترف جريمة قتل على الأرض، عندما قرّر أن يقتل أخاه، ويتخلّص منه.

فبعد أن طوّعت له نفسه هذا الأمر، لم يُخْفِه عن أخيه، قال له باختصار: «لأقتلنّك».

ويحاول الأخ المسالم أن ينصح أخاه الهائج: ما ذنبي؟ لا ذنب لي في عدم قبول اللّه قربانك، لأنّه اللّه يتقبّل من المتّقين. وإن بسطت يدك لتقتلني فلن أمدّ يدي إليك، ولا أريد أن أتحمّل إثمك. ستحمل إثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار.

هنا يرسم لنا القرآن مشهداً لصراع الخير والشر، الذي سيحكم مسيرة الإنسانية منذ أن وُجد الإنسان على الأرض: مشهد الإنسان الذي يؤمن بالحوار، وبالخير، وبالكلمة الطيبة والإيمان لفضّ أي نزاع، ومشهد الإنسان

الذي حوّله حسده وأنانيته إلى وحش، ولا يُريد أن يسمع إلاّ صوتاً واحداً يغريه بالقتل، وإزاحة هذا الغريم من أمامه.

ويطيع قابيل ما تسوّل له نفسه، يلبّي نداء الغريزة العمياء، بعد أن أسكت أي نداء للخير، أو الحب، ويستلّ سكينه ويغمده في صدر أخيه.

وبذلك، يفتتح قابيل صفحة لن تنتهي من تاريخ الإنسان، صفحة سوداء تُكتب بمداد الحقد، والأنانية، وحب الذات، والتسلّط، والعداء، والغضب وحب الانتقام.

لقد أراد اللّه لنا أن نتعلّم من هذه القصة درساً أساسياً هو أنّ الإيمان والتقوى هما أساس الخير، والطريق المؤدّي إلى رحاب اللّه، وأنّ الأنانية وحبّ الذات مدخل للحسد، ومصدر لوباء مدمّر.

بعد سرد القصة، يصدر اللّه حكماً إلهياً عاماً، ربطه ببني إسرائيل: ﴿... **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ...﴾ [المائدة: ٣٢].

لقد عرفت الإنسانية حروباً وجرائم لو جُمعت دماء ضحاياها لكانت كافية لإحداث طوفان جديد. ومع ذلك، ما زالت سكين قابيل تعمل، لأنّ الأنانية والطمع هي الشرعة المعمول بها لدى دول وأفراد وجماعات، لا تُحرّكها سوى غريزة واحدة: الحياة لا تتّسع إلاّ لي وحدي، وعليّ أن أُلغيك. أمّا الطريق إلى اللّه، فهو ما حاوله هابيل، وما قاله: ﴿... **مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: ٢٨].

صاحب الجنتين - أصحاب الجنة
وعي الإنفاق

صاحب الجنتين، وأصحاب الجنة قصّتان يوردهما القرآن الكريم، في إطار منهجه التربوي لبناء الشخصية الإسلامية بناء إيجابياً، لذلك يضيء لنا حيث يجب أن نتّعظ ونتأمّل، من دون أن يهتمّ بالتفاصيل: الأسماء والزمان والمكان. لكن، بإمكاننا أن نقرأ الكثير الكثير ما بين السطور. ومن السِياق في قصة صاحب الجنّتين نعرف أنّنا أمام رجليْن، يريد لنا القرآن أن نأخذهما مثلاً لِنتّعظ، ونعتبر، فأحدهما فقير مُعدم، والآخر مزارع ثري مُتْرف، يملك جنّتيْن، أي بستانين فيهما شتّى الأثمار، فضلاً عن مزرعة يرويها نهر جارٍ. وهذا يعني بلغة أهل الاقتصاد والتجارة والزراعة أنّ الرجل كان من أثرياء المُنتجين والملاكين، فهو يملك المال والأرض، وعنده العمال والفلاحون والخدم والحشم الذين يأتمرون بأمره.

وها هي المزرعة ﴿...آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ...﴾ (الكهف: ٣٣) أي أنّ الثمار والزرع سَلِم كلُّه من الآفات والعوامل الطبيعية، والمواسم أقبلت، ونِعم الله تتدفق على هذا الثري، وكلّ شيء يسير على ما يُرام وحسبما يشتهي.

ويلتقي الثري صديقه أو جاره المعدم، فيُدخله بستانه. وهناك يدور بينهما حوار طويل.

صاحب الجنّتين لم يستوقف الفقير ليسأله عن صحته، ولم يَدْعُه إلى البستان كي يختار ما يشاء من الثمار، أو ليملأ له سلّة منها لعائلته. لا.. لم يحدث شيء من هذا.. إذ سرعان ما نكتشف، من أوّل جملة في الحوار، أنّ هذا المُتْرف الثري لم يكن ممّن يجمعون بين الدنيا والآخرة. بل كان من عبيد الدنيا، فقد نسي والنعم تنهال عليه، أنّ هذه النعم مسؤولية، ولكن أنّى له أن يستيقظ من غفلته وهو يقول لصاحبه بتبجّحٍ، ومن دون مقدمات: «أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً».

تصوّر أنّك تلقي التحية على أحدهم فيردّ عليك قائلاً: أنا أكثر منك مالاً، أو أنا أعزّ منك!.

هذا منطق كلّ من تبطره النعمة، أو الجاه: أنا أعزّ منك لأنّني أملك المال، والجاه والثروة، وعندي الأعوان والأنصار، أمّا أنت فماذا تملك، وأي عزّ تستطيع الحصول عليه، بمالي أستطيع شراء من يسبّحون بحمدي ويقدّسونني.. أنت لا شيء أمامي.. هذا ما كان يريد أن يقوله الثري لصاحبه المُعدم.

لا يمكن لأي زمن أن يخلو من هذا النموذج، وهذا ما يفعله الغرور والكِبَر عندما تُقبل الحياة على إنسان نسي الله، فيُنسيه الله نفسه. هذا النموذج ينسى الله لأنّه انحرف عن خط الإيمان، ونسي المسؤولية الملقاة على عاتقه.

لقد أنعم الله سبحانه عليه، وأغرقه بعطاياه ليضعه في دائرة الاختبار والامتحان: خُذْ.. ماذا ستفعل بكلّ هذا المال.. هل ستتحمّل المسؤولية التي رتّبها الله عليك حين خاطبك: وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم؟

صاحب الجنّتين هو النموذج الذي يتكرّر في أيّ زمن، وفي أي مكان. وشأنه شأن كلّ من يزداد طغياناً كلّما كبرت ثروته، فكأنّ الله يمدّ له بالحبل فلا يستيقظ من غفلته، لأنّ النعم تزيده جهلاً وغروراً وبطراً، واستسلم بكليته لزخارف الشيطان. ويقول الإمام علي(ع): إذا رأيت الله سبحانه يُتابع عليك البلاء فقد أيقظك، وإذا رأيت الله سبحانه يُتابع عليك النعم مع المعاصي فهو استدراج لك.

ويضعنا القرآن أمام مشهد آخر، ليُرينا كيف يتضخّم غرور هذا الرجل، ويؤدّي به إلى سلسلة من الذنوب، نهايتها الشرك بالله. فعندما يدخل إحدى جنّتيه سيقول لصاحبه: «ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً. وما أظنّ الساعة قائمة».

هنا يُورّطه غروره في مستنقعين من مستنقعات الشيطان، الأوّل الركون والاطمئنان إلى أنّ أمواله وأملاكه باقية، وغير قابلة للفناء، والثاني إنكار قيام الساعة، لأنّ في قيامها زوال هذه النعم. لكنّ هذا الظنّ ليس إلاّ أمل وأمنية يزنّ بها الشيطان في أذنه. فهذا الرجل يعيش وهم خلود ثروته، ويرفض حتى فكرة الموت الذي يفصله عن هذه الثروة، أو يحرمه منها.

هذا الاطمئنان للدنيا، والركون إلى مثل هذه الآمال والأوهام يحذّرنا الله منه، ويدعونا إلى أن نفكّر في حقيقة الحياة ومصير كلّ إنسان: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ...**﴾ (الكهف: ٤٥).

فما هي الحياة الدنيا؟ تأمّل حقلاً ميتاً، لا أثر لحياة النبات فيه. يسقط المطر، فتخضرّ الأرض، وتكتسي بالأعشاب. لكن بعد الربيع يأتي الصيف ثمّ الخريف، فيجفّ ويبس ما كان أخضر، ثمّ يتكسّر ويصبح هشيماً تذروه الرياح.

أليست هذه صورة أخرى عن حياة أي إنسان: طفولة، ثمّ شباب، وكهولة وأخيراً شيخوخة يعقبها الموت. فماذا بعد ذلك؟

صاحب الجنّتين كان يُفكّر بمنطق آخر، يُمليه عليه شيطان ماله وغروره وتمسّكه بالدنيا: ما أظنّ أنّ جنّتي تبيد، وتُصبح هشيماً تذروه الرياح. وهنا يبني حساباته على قدراته الشخصية، وعلى إمكاناته، فقد أمّن كلّ الوسائل لوقاية جنّته، وفكّر بكلّ السبل لحمايتها. أليس عنده ما يكفي من الحرّاس والأنصار والأعوان؟ الأمر الوحيد الذي لم يضعه في حساباته أنّه نسي تجهيز علاقته باللّه، والذي بيده الأمر والحل والربط، والقادر على كلّ شيء.

ولأنّه في شك من كلّ أوهامه هذه، لذلك يتمسّك بأمل أكثر صلافة وغرابة، إذ يقول حتّى وإن رُددت إلى ربّي، وقامت القيامة، فسأجد عند ربّي ما هو أحسن من هذا البستان!

إنّه ليس طاغية فحسب، بل يحسب نفسه من أحباب الله، ومن المقرّبين والمفضلين عنده، وإلاّ ما كان ليغدق عليه كلّ هذه النعم.

لقد ظل الرجل الفقير مصغياً لتبجُّحات صاحب الجنّتين، بل لم تستفزّه لهجة الاستصغار، ولا قوله: «أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً». نحن هنا أمام رجل هو نموذج المؤمن، الذي أسّس إيمانه على عبودية خالصة لله. صحيح أنّه لا يملك من حطام الدنيا شيئاً لكنّه غني بتعفّفه، وعزيز بعبوديته، ومن المستحيل أن يكون واحداً ممّن جذبهم مال هذا الثري وجاهه، وسخّره ليسبّح بحمده ومكانته شأن المتزلّفين.

لهذا، عندما أراد أن يردَّ، لم يحاول أن يردّ الصاع صاعين، ردّ بالكلمة الطيّبة. حاول أن يرشده، ويعظه، ويبيّن له إلى أين أخذه الغرور والتكبّر، فسأله مستنكراً: أكفرت بالذي خلقك؟ كيف تنسى نفسك. أنت لم تكن

سوى حفنة من تراب؟ وإذا كان عندي من شيء أعتزّ وأفتخر به فإنّ عبوديتي لله الواحد الأحد مصدر فخري وعزّي، بينما أنت تفتخر بأشياء فانية زائلة.

ويشير الفقير في معرض ردّه إلى لحظة هامّة، أو جانب مهمّ في سلوك هذه النماذج التي تستعبدها زخارف الدنيا، إذ يخاطبه ويقول له: لولا إذ دخلت قلت ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله.

لا شكّ أنّ الفقير لاحظ كيف وقف صاحبه الثري مبهوراً، أمام منظر جنته، عندما دخلا معاً: أثمار تتلألأ وتتدلى، وأشجار تمتلىء بالخير والعافية، على امتداد البصر. إنّه منظر غير عادي. كثيرون يستوقفهم مثل هذه المشاهد، منظر جميل، أو زهرة تتألّق بألوانها، أو مشهد طبيعي فيه جلال وكمال وعظمة.

أمام مثل هذه المشاهد تنطلق الشهقة من أعماق الصدر: ما شاء الله، سبحانه الله.

إنّ العيون والقلوب التي لا تستطيع أن تبصر عظمة الخالق، وإبداعه وعطائه في تلك المشاهد، هي عيون أصابها العمى، وقلوب عطلتها مطامع الدنيا.

صاحب الجنّتين لم يقف حامداً شاكراً مسبحاً أمام جنّته الممتلئة خيراً وجمالاً، بل فاض وجدانه بالكبر والخيلاء والزهو. كان وجدانه وجداناً مريضاً، لهذا قال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً.

أمّا الفقير فيكمل جملته: «إن ترنِ أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى الله ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا».

وتحدث المفاجأة، التي لم تكن ضمن حسابات صاحب الجنّتين. في

الصباح، عاد ليتفقد أملاكه، فإذا هي «خاوية على عروشها»، فالدعائم مكسّرة، والأغصان محطمة، والجنّتان ينعب في جنياتهما بوم الموت والدمار. ويروح الرجل «يقلّب كفّيه»، يضرب كفّاً بكف، ويتحسّر على الأموال التي أنفقها ويقول «يا ليتني لم أشرك بربّي أحداً».

هذه اليقظة جاءت متأخرة كثيراً، ولا فائدة منها، فهو ندم يأتي بعد سقوطه في الامتحان، ونزول البلاء، وصرخته هذه هي نفس الصرخة التي أطلقها فرعون وهو يصارع الأمواج كي لا يغرق، وهو نفس الندم، ونفس التوبة التي تراود الكثيرين وهم على أبواب الموت لكنّها توبة متأخرة، وندم لا طعم له.

ويختم الله قصة هذا المغرور الطاغية بالقول: ﴿**وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا**﴾ (الكهف: ٤٣).

الأن، لن يجد من يقف معه، كلّ الذين كانوا يسبحون باسمه، ويحرقون له بخور المدح والثناء سينفضّون من حوله، بعد أن خسر كلّ شيء. وهذا دأب المنافقين والانتهازيين في كلّ عصر، الذين يلتفون حول زعيم أو قائد، سرعان ما يتخلّون عنه، ويتبرّؤون منه إذا فقد وهجه، بل قد يشاركون في سلخ جلده، وكشف عيوبه وذنوبه، فهم خدم المال والجاه والسلطة، ويميلون كيفما تميل.

لقد ضرب الله لنا مثل هذين النموذجين كي نتّعظ، ونتدبّر، فمزرعة صاحب الجنّتين صورة مصغّرة عن الدنيا، التي يصفها إمام المتقين علي(ع) فيقول: ألا وإن الدنيا هي دار غرّارة خدّاعة تقتل في كلّ ليلة أهلاً وتُفرّق في كلّ ساعة شملاً. وهكذا كان يُحذّرنا: انظروا إلى الدنيا نظرة الزاهدين فيها، فإنّها عن قليل تزيل الساكن وتفجع المترف، فلا تغرّنكم كثرة ما يعجبكم منها.

أمّا الرجل الفقير فقد آمن بعبوديته لله، وأنّ في الآخرة محكمة إلهية عادلة، تثيب وتعاقب، لذلك عاش مطمئناً، راضياً، وعاش الحياة الدنيا فكراً وقولاً وعملاً أن هذه الدار هي مرحلة اختبار وامتحان لإيمانه، لأنّ نعم الدنيا مهما عظمت، وأقبلت على المرء فإنّها تظلّ نعيماً قابلاً للزوال في أي لحظة، والحقيقة الثابتة التي لا تتغيّر هي الله الواحد الأحد.

وخلافاً لموقف صاحب الجنّتين، لم يعيش الرجل الفقير حالة فقره مصدراً للذل، فيما كانت عزة صاحب الجنّتين عزة موهومة فارغة، تهاوت مع أوّل امتحان دمر ثروته وجاهه. فالله كان يمدّه بالنعم، يستدرجه يوماً بعد يوم، ومع كلّ نعمة جديدة كان يزداد صلفاً وجبروتاً حتّى وصل إلى الكفر، عندها جاءت لحظة أوّل حساب، كما يصوّرها لنا القرآن الكريم: ﴿... **حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ (الأنعام: ٤٤).

* * *

وفي قصة أصحاب الجنة يعرض القرآن ومن زاوية أخرى لعلاقة الإنسان بما تحت يديه من النعم والأموال، ومسألة الابتلاء بالثروة، فالمال مسؤولية، وإنفاقه يكون عملاً بقول اللّه تعالى: ﴿... **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ...﴾ (القصص: ٧٧).

وملخص القصة كما وردت في سورة القلم، أنّ رجلاً مؤمناً طاعناً في السن، كان يملك جنة في أرضه، أي بستاناً عامراً جميلاً، كثير الأشجار ووفير الأغلال والثمار.

وكان هذا الرجل شاكراً لأنعم اللّه عليه، حريصاً في كلّ سنة على أن يؤدي زكاة أمواله، فيأخذ في نهاية الموسم، من الثمر والغلال كفاية عائلته، أمّا الباقي فيوزّعه على الفقراء والمساكين.

وورود موضوع الزكاة في هذه القصة، دلالة على ان الزكاة لم تكن تشريعا خاصا بالاسلام وحده، بل صاحبت كل الرسالات، واقترنت الدعوة اليها بالدعوة الى الصلاة، وهذاما نقرؤه مثلا في قول السيد المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ...﴾ (مريم: ٣١)، وقول إسماعيل ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ...﴾ (مريم: ٥٥).

هذا الرجل، لم يفرط في الزكاة أبدا، بقي على هذه الحال لسنوات طوال، اعتاد خلالها الفقراء أن يأتوا إليه في كلّ موسم حصاد ليتسلّموا حصصهم الوفيرة.. وكان يفعل ذلك بطيبة خاطر، ومن دون أي منّة لأنّه مؤمن وموقن أنّه يوزّع حقوقاً لأصحابها.. هذا الأمر لم يرق لأولاده، وكانوا يرون أنّ هذا تفريطٌ من والدهم برزقه ورزقهم وبمستقبل أولادهم..

نعم، سحبهم الشيطان إلى ساحته، وقعوا في حبائله سريعاً، ولم يخفوا الأمر، تحرّكوا إلى أبيهم وحاولوا إقناعه.. قدّموا حججهم وتبريراتهم، لكنّ الأب كان يجيبهم: المال مال اللّه والثمار ثماره، وهو من أوجب عليَّ فريضة الزكاة. وهكذا كانوا يسكتون على مضض. ولم يمض زمن طويل حتّى توفي الأب، وورث الأولاد البستان، وصار أمره بأيديهم.. ولم يتردّدوا لحظة في أخذ قرارهم الحاسم.

هنا يضيء لنا القرآن الكريم المشهد بومضة خاطفة، من المهم أن نلتفت إليها، هؤلاء لم يكتفوا بتصميمهم على حرمان الفقراء فحسب، بل راحوا يشهدون اللّه، ويقسمون بأنّهم سيحرمون الفقراء. تصوّر إنساناً يُقسم باللّه أنّه سيفعل المعصية! هذا يعني أنّ الشيطان لم يغوهم فحسب، بل ملأ يده منهم.. هكذا راحوا يتحدّون اللّه، ومن غير حياء: ﴿... إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (القلم: ١٧)، ﴿وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾ (القلم: ١٨)، منذ الآن سيقطفون الغلال وحدهم، ولن يكون بعد اليوم

أي حصة للفقراء والمساكين، كما كان يفعل والدهم.

وراحوا يدرسون التنفيذ بكلّ دقّة، لذلك، اختاروا وقت الفجر. مشى بعضهم على رؤوس أصابعه، وحرصوا على التخاطب همساً، وسلكوا طريقاً غير التي يسلكها الفقراء إلى البستان. وكلّ هذا لإنجاز القطاف بعيداً عن أعين الفقراء: ﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ (القلم: ٢١-٢٥).

وما إن وصلوا إلى البستان حتّى كانت المفاجأة المرعبة: صدمة هزّت أركانهم، شلّت خطواتهم، عقدت ألسنتهم.. الجنة التي تركها لهم أبوهم عامرة خضراء مليئة بالأشجار والثمار، ها هي متهالكة متداعية، وقد أصبحت سواداً ورماداً.. وعبرة. ما الذي حدث؟

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (القلم: ١٩-٢٠).

في البداية ظنّوا أنّهم أخطأووا الطريق إلى بستانهم، دقّقوا النظر أكثر، فتأكّدوا أنّهم أمام الحقيقة المرّة، هنا، استفاقوا بعد فوات الأوان، واعترفوا بالنتيجة التي أوصلوا أنفسهم إليها: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (القلم: ٢٧).. نعم، لقد ذهب كلّ شيء، والآن أصبحوا فقراء بعد غنى.. تساووا مع الذين حرموهم.. ويا له من عذاب.!

إن مسؤولية الفقراء والمساكين، لم يجعلها اللّه أمراً اختيارياً، بل فرضها واجباً كما يشير إلى ذلك الحديث: «**إنّ اللّه فرض على أغنياء الناس في أموالهم قدر الذي يسع فقراءهم، فإن ضاع الفقير، أو أجهد، أو عرى فبما يمنع الغني وإن اللّه عزّ وجل محاسب الأغنياء في ذلك يوم القيامة ومعذبهم عذاباً أليماً**» وطبعاً،

الأغنياء في العرف الإسلامي هم من يملكون مالاً زائداً عن قوت سنتهم.. يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾ (التوبة: ١٠٣).

وفي حديث للإمام الصادق يحذّر فيه من مغبّة التمرّد على أداء هذه الحقوق: «**ما فرض اللّه على هذه الأمة شيئاً أشدّ عليهم من الزكاة، وفيها تهلك عامتهم..**».

فالكثير من الناس قد يصلّون ويصومون ويذهبون إلى الحج، ولكن عندما يصل الأمر إلى أن يفوا بواجباتهم المالية والتزامهم أمام اللّه يتوقفون ويتذرعون، والشيطان كفيل بكثير من الأعذار.

إنّ دور التربية الإيمانية أن تجعلك تصمد أمام هذا الابتلاء، وتثبت أمام الاهتزاز.. وأن تحسب للّه ألف حساب، فلا تغفل أو تتحدّى، لأنّ اللّه عزيز ذو انتقام، لأنّ اللّه يمهل ولا يهمل، فإذا كنت مقتدراً وتقف متردّداً أمام هذا الواجب، فتذكّر أصحاب الجنة، واسعَ لتخرج من الامتحان فائزاً في الدنيا ببركة وزيادة في الزرق والنعم، وفوقها الفوز في الآخرة، ابرئ ذمتك، اعطِ الفقراء حقّهم ممّا أعطاك إيّان اللّه من نعمه ورزقه، هو لهم فلا تحرمهم منه: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ (آل عمران: ١٨٠).

أمّا الخيار الآخر ففيه الأمان كلّ الأمان: ﴿...وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

النبي يوسف(ع)
جهاد النفس

وقف رسول اللّه (ص) يُخاطب أصحابه، بعد رجوعه من إحدى المعارك فقال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر. فقيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس.

فقد تُبتلى أمّة بعدو يهاجمها، فإن كانت قد أعدّت العدّة ردعته وانتصرت، لكن هذا الإعداد يبدأ دائماً بإعداد النفوس، فداخل الإنسان تدور معركة يومية طاحنة مع عدو آخر هو النفس ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (يوسف: ٥٣).

فالإنسان الذي لا يستطيع أن يحرّر ذاته من عبوديته لأصنام المطامع والشهوات، ومغريات الدنيا وحب الحياة، ومن الولاء لغير اللّه، هو جندي مشكوك في قدرته على أي مواجهة، مع عدو خارجي.

والقرآن الكريم يضع بين أيدينا نموذجاً إنسانياً راقياً، يُعلّمنا كيف يقف في وجه ابتلاءات حلّت به، وصمد وانتصر، حين وضع ثقته باللّه، رغم أنّه كان عبداً، وكان عليه أن يُنفّذ ما يُطلب منه، لكن هذه العبودية الظاهرية والشكلية لم تُقيّد إرادته، وروحه وانتماءه للّه، لذلك حملت قصّته أعلى الدروس في ممارسة حريته عن طريق التمسك بسلاح التقوى والورع والعفة، والعبودية للّه وحده.

إنّه النبي يوسف (ع)، الذي بدأت معاناته حين باعه إخوته كعبد إلى قافلة من التجار، فاشتراه عزيز مصر، وكان لا يزال فتى لم يبلغ الحلم بعد، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

وعاش في قصر العزيز، وكان الجميع من حوله غارقين في حياة الشّرك، ورغم ذلك، نما يوسف نقيّاً طاهراً، روحاً وجسداً وفكراً وإيماناً.. لكنّ جماله الملكوتي أسر زرجة العزيز، فشُغفت به، وحاولت رميه في شراكها. إستعملت معه شتّى الأساليب، لتسقط من حوله سياج العفّة: استعملت الإغراء، السّلطة، المال، الجاه، عطفها عليه ورعايتها له... ولكنّ كلّ ذلك لم يسقط صمّامات الأمان والتقوى والوقاية عند يوسف، فقد استعصم وتمسّك بحبل ربّه المتين.

بعض المؤمنين يتعامل مع الإيمان كما يتعامل التاجر مع بضاعته، يضعها في مستودع إلى حين تأتي الفرصة المناسبة لعرضها، وتحقّق له أعلى ربح ممكن.

هذا دأب المنافقين وضِعاف الإيمان، عندما يُوضع إيمانهم على المحكّ، فيتصرّفون كتجار، ما إن تبدأ المعركة داخل أنفسهم بين التقوى ونوازع الأطماع والربح والشهوات.

لذلك وصف رسول اللّه (ص) جهاد النفس بالجهاد الأكبر، فالإنسان الذي يسلم زمام أمره إلى الشيطان لا يمكن أن يصبح جندياً يُؤتمن على مبدأ أو جبهة. وكم من شياطين المال والجاه والسلطة والخوف، وحب الحياة

نفذت إلى مجتمع من المجتمعات، فأوهنت قواه، وشرّعت أبوابه أمام أي طامع، وتركته ينزلق إلى مستنقعات الانحلال والانحراف.

لقد عاش الإمام زين العابدين (ع) مرحلة كانت الأمة الإسلامية خلالها تعيش نفس الحالة، ولطالما علّم أصحابه أدعية هدفها إعادة إحياء الدين، ومجاهدة النفس:

«إلهي أشكو إليك نفساً بالسوء أمّارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك مُتعرّضة، تسلك بين مسالك المهالك.. طويلة الأمل، إن مسّها الخير تمنع، وإن مسّها الشر تجزع.. إلهي أشكو إليك عدواً يُضلني وشيطاناً يغويني قد ملأ بالوسواس صدري...».

وكان الإمام الكاظم (ع) يُعلّم أصحابه: **جاهد نفسك لتردّها عن هواها، فإنّه واجب عليك كجهاد عدوك.**

وهذا ما فعله يوسف (ع)، فهل وهنت إرادته واستسلم؟ لقد وضعته امرأة العزيز في أتون تجربة قاسية، كما يوضع الذهب في النار لامتحان صفائه ونقائه.

هي لم تكن تريد اختباره. كانت تريده لنفسها، وكانت كلّ الظروف مهيأة لإسقاط أي شاب في شراكها: امرأة جميلة ثرية، محبّة، أحاطته منذ دخوله القصر بالعطف والرعاية والحنو، وهي إلى ذلك امرأة العزيز، تعنو لإرادتها الإرادات، وكيف إذا كان المُمتحن عبداً من عبيدها؟

ويخبرنا القرآن: «**وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك**».

لقد جرّت يوسف إلى قاعة أحكمت غلق أبوابها كي يطمئنّ، ويستجيب لما تريده منه. تزيّنت له، أسمعته الكثير من معسول الكلام كي تضعف ممانعته، وتزيل أي خوف قد يراوده.

لطالما شكّلت مسألة الجنس والانحلال الأخلاقي، وتساهل المجتمعات مع ظاهرة انتشار الفحشاء والمنكر، أحد الأسباب الرئيسية لسقوط الحضارات، في الأمم على مرّ التاريخ. وها هي حضارة العصر تعيش نفس المأزق، وتشرب من نفس الكأس، حيث باتت فرص الفحشاء تقدّم على أطباق من فضة، وبمتناول من يشاء.

لهذا أكدت الديانات السماوية على قيمة العفة والتقوى، كأساس لبناء شخصية المؤمن، وجاء الإسلام ليرتقي بهذه القيمة إلى مستوى الجهاد في سبيل اللّه، ففي الحديث: ما المجاهد الشهيد بأعظم أجراً ممّن قدِر فعفّ.

ويوسف (ع) قدِر فعفّ، وضرب المثل لأي مؤمن كيف يصمد أمام بلاء الغواية، ويجتاز الامتحان بيسر، لهذا كان ردّه على عرض امرأة العزيز: ﴿... **مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ (يوسف: ٢٣).

لم يتردّد يوسف في إعلان موقفه من العرض، فسرعان ما رنّ جرس إنذار التقوى في نفسه، ونبهته روح الإيمان، أضف إلى ذلك مقام العصمة، لذلك لم يراوغ، ولم يخف.

في ساعات الشدّة والبلاء، حتّى ضعاف الإيمان لا يطلبون العون إلاّ من اللّه، فيمدّون إليه أيديهم: يا رب ساعدنا، نجّنا.

الأمر مع يوسف مختلف، فحياته كلّها كانت للّه، ومن أجل اللّه عز وجل، لذلك كان من الطبيعي أن يعتصم بحبل اللّه ويلجأ إليه، ويستعيذ به من وسوسات امرأة العزيز، وهو درس آخر يُعلّمنا إيّاه القرآن في هذه القصة: إستعذ باللّه، فهو حصنك وملاذك لإسكات وسوسات الخنّاس، كلّما أطلّ برأسه ليُغريك، ويجرّك إلى شباكه ومستنقعاته. وهذا التعوّذ باللّه هو جزء من

أسلحة جهاد النفس، والصمود أمام أسلحة شياطين الإنس قبل شياطين الجن، خصوصاً في هذا العصر.

إنّ أي شخص ضعيف الإيمان يحرص على أن يعمل حساباته، في مثل هذه المواقف. يشعر بالخوف على أمنه ومصيره ومستقبله ومكتسباته، لكن إيمان يوسف كان إيماناً راسخاً، والسبب أنّه يثق باللّه ثقة عمياء.

كثيراً ما نسمع شخصاً يقول، وهو يتهيّأ لإنجاز عمل ما: إتكالي على اللّه. لكنّه سرعان ما يتوقّف، ويتردّد، ويتراجع، لأنّه ببساطة لا يملك الثقة الكافية باللّه تعالى.

في مثل هذه المواقف، وحين يقفل اليأسُ أبواب الرجاء والأمل في وجه الإنسان، يُعلّمنا الإمام زين العابدين (ع) كيف نستعيد هذا الرجاء بتوجّهنا إلى اللّه: اللّهم من أمسى وأصبح وله ثقةُ ورجاءُ غيرك فإنّي أصبحت وأمسيت وأنت ثقتي ورجائي في الأمور كلّها.

لقد كانت هذه هي حال يوسف، لا رجاء له إلاّ اللّه، هو ثقته وهو أمله، فحتّى عندما حيكت امرأة العزيز مؤامرة مع نساء المدينة، للإيقاع به، تمسّك بحبل اللّه ورجائه به، وتحمّل مسؤولية عفّته وتقواه ولو كان الثمن إلقاءه في غياهب السجن: ﴿... **وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...**﴾ (يوسف: ٣٢-٣٣).

والنتيجة، وكما يخبرنا القرآن في هذه القصة المملوءة بالعبر والدروس، أنّ اللّه سيحفظ يوسف، وأنّ الفتى الذي دخل القصر عبداً سيصبح سيّد مصر.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٦).

وإلى هذا يشير رسول اللّه (ص) في حديث قدسي: وعزّتي وجلالي لا يُؤثر عبد هوايَ إلاّ استحفَظَتْهُ ملائكتي وكفّلت السماوات والأرض رزقه وكنت له من كلّ وراء تجارة.

يقول الإمام علي (ع): جهاد النفس هو مهر الجنة، ويقول أيضاً: شكر النعمة اجتناب المحارم. ويوسف قُدّم في القرآن الكريم نموذجاً فريداً في التاريخ للشاب الذي اعتصم بعفّته، وصمد في وجه ابتلاء يذكّرنا بصمود النبي أيوب (ع) أمام ابتلاء المرض، من دون أن يفقد الثقة باللّه ولو للحظة واحدة.

ما هي العفّة؟

لم يقدّم القرآن الكريم النبيّ يوسف كحالة فريدة في التّاريخ لا يمكن أن تتكرّر، قدّمه لنا ليكون نموذجاً لكلّ شابّ ولكلّ إنسان يقرّر أن يسير في طريق العفّة والطّهارة، وأن يبتعد عن الرّذيلة والانحراف، والسّقوط في مهاوي الشّهوة، ويقول عند كلّ تجربة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣].

العفّة، تعني ضبط الإنسان لغرائزه وشهواته، بحيث لا يكون أسيراً لها، وهنا، تبرز مغالطة اجتماعيّة سائدة ترى أنّ العفّة كلمة خاصّة بالنّساء دون الرّجال، وهذا التصوّر انطلق من العقليّة الجاهليّة، الّتي تعتبر خطيئة المرأة، إن حصلت، غير مغتفرة، ولا بدّ من أن يراق بسببها الدّم، فيما خطيئة الرّجل تغتفر ويتسامح بها.. وأكثر من هذا، هناك بعض المجتمعات تعتبر أنّ تعرّض المرأة للاعتداء هو انتقاص لعفّتها، وتُحمّل ثمن ذلك، بأن يتمّ تزويجها لمن

اعتدى عليها. وللأسف، ما زالت عقليّة التّمييز في موضوع العفّة والانحراف موجودة في مجتمعاتنا، فيما الحكم القرآني واضح: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾ [النّور: ٢]، فليست المرأة وحدها، إذا أخطأت، من تضع رأس أهلها بالأرض وتجلب لهم العار، فالشاب أيضاً يجلب بانحرافه العار والعيب لأهله ولبيئته... في حساب اللّه الانحراف هو الانحراف، هو العمل المشين عن أيّ شخص صدر، والعفّة هي العفّة، هي العمل الحسن الصادر عن أيّ شخص.

أساس بناء الشّخصيّة

لقد اعتبرت التّربية الإسلاميّة العفّة أساساً في بناء الشخصيّة الإسلاميّة، فالعفاف عندما يصبح سمة المجتمع، فسيقوده إلى ضبط علاقاته والتّوازن فيها.

بعض المنظّرين للحريّات، يرون في الحديث عن العفّة حديثاً عن عادات قديمة وتأخّر وعودة إلى الوراء، لكن المجتمعات الّتي غيّبت العفّة، وفتحت الأبواب واسعةً أمام الغرائز، لم تجنِ من تلك النّظم سوى أرقام مخيفة عن أمراض جنسيّة قاتلة، وعن جرائم وانتهاكات، وتفلّت إلى أبعد الحدود، كالشّذوذ الّذي يخالف طبيعة الحياة.

لقد بات الجنس نوعاً من التجارة، لها أسواقها، وتجارها، وأحد مظاهرها الإباحية على الإنترنت والمواقع الجنسية، إذ تقدر موارد هذه التجارة بأكثر من خمسة مليارات دولار، يستثمرها نحو ٢٥ مليون موقع إباحي. والأخطر أنّ أحد أكبر المواقع الإسرائيلية يعمل على تعريب موادّه، نظراً للطلب الكثيف عليه من مختلف الدول العربية.

وإذا علمنا حجم ما تدفعه دول الغرب من أموال لمعالجة الأمراض الجنسية، لتبيّن لنا حجم مسؤولية كلّ أب وأم ومسؤول، لبناء صمامات أمان، تقي شبابنا من الوقوع في هذا الفخ.

لم يغفل الإسلام تحد يد الآليات التي تحقّق العفّة، فرسم خريطة طريق لها، من خلال:

ـ غضّ البصر: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ [النّور: ٣٠]، ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ [النّور: ٣١]

ـ حرمة مصافحة الرّجل للمرأة من غير محارمه، والمرأة للرّجل من غير محارمها: «**لا يصافح الرّجل المرأة إلا من وراء حجاب، ولا يغمز كفّها**».

ـ دعوة المرأة إلى الالتزام بالحجاب: ﴿**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ**﴾ (الأحزاب: ٥٩)، ودعوة الرّجل إلى الاحتشام، وعدم اعتبار الاختلاط هو القاعدة في علاقة الرّجال بالنّساء، الّذي بات يُعنون بعنوان الصّداقة، وتجنّب أجواء الإثارة، من ميوعة ورفع الكلفة وخضوعٍ بالقول، فيطمع الّذي في قلبه مرض. والخضوع بالقول هذه الأيّام ورفع الكلفة، من الأمور الّتي تسهّلها وسائط التّواصل الاجتماعي، وتبادل اللّغو والثرثرة، وغير ذلك مما يعبّد الطّريق للوقوع في الخطأ، والخطأ يجرّ الخطأ، وقد يتحوّل ـ لا سمح الله ـ إلى انحراف أو خطيئة.

ويبقى الزواج هو الحل الأمثل لإحراز العفّة، فقد ورد في الحديث: «**ما بُني في الإسلام بناء أحبّ إلى الله عزّ وجلّ وأعزّ من التّزويج**»، «**إذا تزوّج العبد فقد استكمل نصف الدّين، فليتّق الله في النّصف الباقي**»...

مسؤوليّة المجتمع

قد تكون العفّة مسؤوليّة الفرد، وهذا طبيعيّ، ولكنّ المسؤوليّة الأكبر تقع على عاتق المجتمع، فالانحراف هو خطيئة المجتمع وخطيئة النّظام الاجتماعيّ ومؤسّساته، فالمجتمع قد يغلق الأبواب أمام كثير من فرص الزّواج، عبر المغالاة بالمهر، أو من خلال الشّروط الّتي يفرضها الأهل، أو الّتي يضعها الشابّ أو الفتاة لاختيار شريك حياتهما.. وقد أشار رسول الله إلى هذا الأمر بقوله: «**إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة وفساد كبير**».

العفّة، هي مسؤوليّة كلّ شرائح المجتمع، ولا سيّما الميسورة منها، من خلال المبادرة إلى تزويج المعوزين وتيسير أمورهم، عبر تأمين متطلّبات البيت أو تأثيثه، ويقول رسول الله: «**من زوّج أعزب، كان ممن ينظر الله إليه يوم القيامة**».

وفي غياب الدّور الفاعل للبلديّات أو الدّولة، يُمكن إنشاء مؤسّسات أو جمعيّات تتصدّى لهذا الجانب من الحاجات الاجتماعيّة، والّذي قد يكون له الأثر الكبير في الأمن الاجتماعيّ.

وتبقى التّربية الإيمانيّة والرّوحيّة هي المدخل لتعزيز الإحساس برقابة اللّه والخوف منه، والسّعي لبلوغ رضاه وضمانة صمود الإنسان في وجه إغراءات الحرام. ولا سيّما في ظلّ الظّروف الصّعبة الّتي يعانيها الشّباب والشابّات الملتزمات، وبوجود العديد من التحديات، التي تحول دون إنشاء أسرة.

فقد ورد في الحديث: «سبعة يظلّهم الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه؛ إمام عادل، وشابّ نشأ في عبادة اللّه، ورجل قلبه متعلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في اللّه اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إنّي أخاف اللّه ربّ العالمين، ورجل تصدّق بصدقة وأخفاها، لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر اللّه خالياً ففاضت عيناه».

ثعلبة بن حاطب
حين يُسقط المال أصحاب المبادئ

لطالما كان المال معياراً لاختبار الإنسان أخلاقاً، وقيماً وسلوكاً وإيماناً. والقرآن أعطى الإنسان الحقّ المشروع في تحصيل المال «ولا تنس نصيبك من الدنيا»، لكن اللّه جعل هذه الدعوة مشروطة: ﴿... **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ...﴾ [القصص: ٧٧].

ذات يوم، نزل ضيف بأبي ذر الغفاري، وكان مشغولاً بعمل، فقال لضيفه: إنّي مشغول، وإنّ لي إبلاً فاخرج وآتني بخيرها. فذهب الضيف، واختار من الإبل ناقة مهزولة، وبرّر الأمر بقوله: وجدتُ أن خير إبلك فحْلاً، وأعلم يومَ حاجتك إليه.

وكان من عادة العرب الحِرص على عدم ذبح مثل هذا الفحل، وادخاره ليوم إخصاب النوق، فقال أبو ذر لضيفه: إنّ يومَ حاجتي إليه لَيومُ أُوضع في حفرتي، فاللّه يقول: ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٩٢].

ولأهمية التكافل الاجتماعي في حياة المجتمع، فقد سنّ الإسلام تشريعات الزكاة والخمس والصدقات والإنفاق المُستحب، وبذلك جعل

الثروة في خدمة الإنسان، وذمّ، وحذّر ممّن يُسخّر نفسه ليكون خادماً لماله وثروته، ويحصر كلّ همّه وسعيه في تكبير هذه الثروة وتضخيمها، وهذا ما يُحدّثنا به القرآن، في آيات من سورة التوبة، نزلت في رجل من الأنصار هو ثعلبةُ بن حاطب.

كان ثعلبة رجلاً فقيراً مُعدماً، ولا تفوته صلاة الجماعة في المسجد، ويحرص على أن يصلي دائماً خلف رسول اللّه(ص).. وكان يُلحّ على الرسول(ص) أن يدعو له اللّه كي يرزقه مالاً وفيراً ليصبح غنيّاً، لكنّ النبيّ(ص) كان ينصحه: «قليل تؤدّي شكره، خير من كثير لا تطيقه»... لكنّ ثعلبة لم يكفّ عن الطّلب، وكان يُبرّر أمله بقوله إنّ الغنى سيقرّبه أكثر من الإيمان.

هل كان ثعلبة ثابت الإيمان، وما الذي كان يخشاه الرسول(ص) على هذا الرجل؟

للمال سطوة وسلطة وسلطان، وإذا تسلّطت شهوته على الإنسان ابتُلي بعدم الكفّ عن طلبه. لهذا كان الرسول(ص) يقول: لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً.

هذا ما كان يخشاه الرسول(ص) على ثعلبة، إذ كيف يستطيع مسْك زمام نفسه، ولجم شهوته من لا يقنع بالقليل؟

إن نِعْمَ حظّ المرء القناعة، وكما يقول الإمام علي(ع): أشكرُ الناس أقنعهم، وأكفرهم للنعم أجشعهم.

فالطمع قد يودي بالإنسان، ويقوده إلى التخلّي عن إيمانه: قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه.. أوليس الأوْلى بك أن تتأسّى بنبي اللّه، وتحيا حياة بسيطة، وتقنع بما وصلت إليه؟

ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود، ومن أين لثعلبة أن يتأسى بزهد رسول اللّه(ص) وقد باتت الثروة هاجسه الدائم؟ كان يرى في الرسول(ص) فرصة للحصول على هذه الثروة: أنت موقعك كبير عند اللّه، ودعاؤك مُستجاب. أدعُ لي أن يرزقني مالاً.

وراح يلحّ، ويرجو، وفي كلّ مرّة كان يقطع للرسول(ص) عهداً على نفسه: والذي بعثك نبياً إن أغناني اللّه لأتصدقنّ وأكوننّ من الصالحين.. أعطي الحقوق، وأؤدي كلّ الواجبات المطلوبة منّي. وهكذا دعا له الرسول(ص). ولم يمضِ زمن طويل حتّى تغيّرت حال ثعلبة، فقد رُزق ثروة، وراح يعمل في تجارة الأغنام، فنمت أعماله ممّا اضطره لنقل حظائره إلى أطراف المدينة. وكانت البداية لتغيّر ثعلبة.

انحرافٌ عن الإيمان

تغيّر الرّجل تدريجيّاً، صار يحضر إلى المسجد أحياناً، في البدء على صلاتي الظّهر والعصر، وعندما زادت ثروته أكثر، ترك الصّلوات ما عدا الجمعة. ومع الوقت، ترك حتّى صلاة الجمعة أيضاً.

كان أداء الصلاة بمسجد الرسول، في المدينة، أشبه ما يكون بجمعية عمومية للمسلمين، فلا أحد يتخلّف إلاّ لمرض أو سفر. وإذا غاب واحد، فسرعان ما يعرف الرسول (ص) ذلك، وهو الحريص على معرفة حال كلّ مسلم، فيستفسر ويسأل كي يطمئن، تماماً كأي أب عطوف، لا تغيب عن عينيه أي شاردة أو واردة من شؤون أسرته.

ولهذا كان يقول كلّما تفقّد ثعلبة وجاءت أخباره: «يا ويح ثعلبة.. يا ويح ثعلبة.. يا ويح ثعلبة.. غرّته الدّنيا بغرورها، وشغلته عن عبادة ربّه»..

أرسل إليه رسول الله يذكّره بوعده الّذي قطعه له، فلم يستجب وبقي على حاله، وعندما نزلت على رسول الله الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التّوبة: ١٠٣]، بعث عاملي الزّكاة إلى ثعلبة، فسألاه أن يدفع الزّكاة المتوجّبة عليه كغيره، فماذا كان ردّه؟ لم يرفض الأمر مباشرة، لكنّه طلب مهلةً للتّفكير.. أكمل عاملا الزّكاة مهمّتهما مع التجّار الباقين، ولما عادا إلى «ثعلبة» راح يراوغ، وطلب مُجدّداً أن يقرأ كتاب رسول الله إليه، فلمّا نظر فيه، أبدى اعتراضه على حكم الزّكاة، قائلاً: «إنّ حكم الزّكاة كالجزية، فنحن أسلمنا حتّى لا نؤدّي الجزية كأهل الكتاب، فإذا وجبت علينا الزّكاة، فأيّ فرق بيننا وبين غير المسلمين»، وطلب ثعلبة من عاملي الزّكاة أن يقولا لرسول الله: «لا أريد أن أدفع، المال لي وأنا أحقّ به من غيري». ولما بلغ ذلك رسول الله كرّر: «يا ويح ثعلبة.. يا ويح ثعلبة».

لقد ابتُلي ثعلبة بما كان يُحذّره منه الرسول(ص) فوقع في شرّ نفسه. أنساه حرصه وبخله وجشعه العهد الذي قطعه على نفسه، وانقلب على مبادئه وماضيه وإيمانه.

ويُفصّل القرآن في بداية سورة المؤمنين أبرز صفاتهم فيقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١٠].

طمع ثعلبة جعله ينسى صلاته وينصرف إلى شؤون تجاربته، وورّطه في التنكّر لعهده ووعده بأداء الحقوق الشرعية المفروضة عليه من زكاة وخمس وصدقات، وبذلك أخرج نفسه طائعاً ممّن وصفتهم الآية بالمفلحين والوارثين والمؤمنين.

إنّ العهد الذي قطعه على نفسه بأن يؤدّي الحقوق المفروضة عليه، أبرمه مع نبي، وبالتالي قطعه تحت اسم اللّه.

يقول الإمام الصادق(ع): ثلاث لم يجعل اللّه عز وجعل لأحد فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البَرّ والفاجر، والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر، وبرّ الوالدين بَرّيْن كانا أو فاجريْن.

وإذا كان اللّه قد أمر الناس أن يفوا بعهودهم للبرّ والفاجر، فكيف إذا كان هذا العهد قد قُطع لنبي؟

إنّ قلّة تحمّل ثعلبة لمسؤولية هذه الثروة، هو ما كان يحذّره منها الرسول، لذلك طغى وتجبّر، فيما الوفاء بالعهد، وأداء الأمانة من أبرز صفات المؤمن: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، فالوفاء بتحمّل هذه المسؤولية أساس في ثبات المجتمع، وانتظام حياته، واستمرار التعاون والثقة فيه. لهذا نجد القرآن والأحاديث تؤكد الحرص على احترام العهود، وتعتبر نقضها من الكبائر، لذلك نزلت على الرسول(ص) هذه الآيات التي تكشف حقيقة ثعلبة:

﴿وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ

﴿يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨].

لقد كشفت الثروة حقيقة ثعلبة: إنّه واحد من المنافقين، الذين كانوا يتظاهرون بالإيمان، أو على الأقل ممّن كان إيمانهم إيمان مصلحة، وعندما ابتلي بالثراء تزعزع هذا الإيمان.

ويحدّد الرسول(ص) علامة المنافق فيقول: إذ حدّث كذب، وإذا أؤتُمن خان، وإذا وعد خلف.

الانقلاب على المبادئ

لم يكن ثعلبة حالة فريدة في التّاريخ، ولن يكون كذلك في الحاضر أو المستقبل، فهو نموذج لكثير من البشر الّذين لديهم استعدادٌ للتبدّل والانقلاب على مبادئهم وأقوالهم وماضيهم..

قد يكون انقلاب الإنسان على ماضيه، نتيجة مراجعة هذا الماضي، نوعاً من محاسبة النفس، والعودة إلى الصراط المستقيم، هذا إذا كان الماضي مُشيناً. ففي هذه المراجعة إعادة بناء للشخصية كي تستقيم، وهي ليست تراجعاً وليس فيها عودة إلى الوراء.

في مجتمعنا وواقعنا، نرى نموذج ثعلبة في كلّ الّذين يهتزّ إيمانهم أو تهتزّ مبادئهم وقيمهم، وقد يتراجعون في كلّ خياراتهم الدينيّة والسياسيّة والوطنيّة، وقد يُسقطون كلّ تاريخهم، عندما تقبل عليهم الدّنيا بزخارفها وبهارجها: مالاً أو موقعاً أو منصباً...

والعجيب أنّ هؤلاء ينتقدون غيرهم على هذا التبدّل والانقلاب، ولطالما

أظهروا الزهد، وذكّروا غيرهم ونصحوهم بوصيّة عليّ(ع) عندما قال: «يا دنيا غرّي غيري، قد طلّقتك ثلاثاً، لا رجعة بعدها...».

ولكن، يبدو أنّ بعض هؤلاء سرعان ما ينسون نصائحهم عندما تتبدّل أحوالهم من العسر إلى اليسر. عندها لا يطبّقون على أنفسهم ما يطبّقونه على غيرهم، فعندما يصل الأمر إلى أخطائهم، يجدون التبريرات والأسباب التخفيفيّة، وكأنّ الخطأ هو ما يرتكبه الآخرون فقط، فالآخرون يتغيّرون، والآخرون يتراجعون، والآخرون ينحرفون، أمّا هم فمعصومون.

وما أكثر من يتصرّف في واقعنا على هذا الأساس، في البيوت أو المؤسّسات أو في مواقع السّلطة، وصولاً إلى أعلى المسؤوليّات.. لا أحد يعترف بأنّه انحرف عن الخطّ... ولهذا كان لزاماً علينا دائماً أن ندعو: «اللّهمّ اختم لي بخير، واجعل عاقبة أمري خيراً»، فمن الممكن أن تبدأ سلوكاً إيمانيّاً مضبوطاً وواضحاً وشفّافاً مع من حولك، ومع نفسك ومع ربّ العالمين، ولكنّ المصيبة، كلّ المصيبة، أن تسقط عند أوّل امتحان وبلاء.. وهل هناك بلاء أكبر من المال أو الجاه أو السّلطة أو الشّهوات؟! هي ابتلاءات البشريّة، ومكمن الفساد في هذه الحياة، لأجلها تقام الحروب، وتشرّع الأحقاد، ويُطمس الحقّ ويُغيّب الصّواب ويُقفز فوق المنطق..

مؤشّرات إنذار

إنّ الأطبّاء يتحدّثون عن إنذاراتٍ مبكرة لأمراض كالسكّر أو الضّغط وغير ذلك، لكن الأرواح تمرض، والقلوب تمرض، والنفوس تمرض، ولا يحدث ذلك من دون إنذارات وعلائم.

إنّ ترك الإنسان لأولويّات يومه وحياته واهتماماته، كالتّواجد في

المسجد، وعمل الخير، وخدمة الإسلام والمسلمين، وصحبة الأخيار، لهي مؤشّرات إنذار لما هو أسوأ.

لاحظ كيف يبدأ التحوّل: الانشغال أوّلاً، ثم الابتعاد عن الأجواء تدريجيّاً، ويتطوّر إلى عدم حبّ سماع الموعظة الّتي تطرق على الوتر الحسّاس، ثم يتطوّر الأمر إلى فلسفة الموقف، ونقد المبادئ، بلا استحياء، وبجرأة ووقاحة وفجور.

هذا هو الخطر الأكبر: نموذج ثعلبة، وما أكثر نماذجه في واقعنا! ما أكثر المتفلسفين الّذين يشرعنون المعاصي، والتّفاهة والفساد والنّفاق، وحتّى الخيانة والانقلاب على الذّات. وكلّ ذلك وهم يرتدون ثوب الزّهد والعفّة والطّهارة والإيمان.

والدواء بالتنبّه إلى جرس الإنذار، ومتابعة النفس جيّداً كما نتابع الآخرين من حولنا، أن نراقبها ونحاسبها، ونتحسّس أيّ تبدّل في مواقفها، أن نطلب من الّذين حولنا أن ينبّهونا وينتقدونا، فنتقبّل النقد بقبول حسن، لا أن نأخذ منهم موقفاً، بل أن نعمل بمنطق : «رحم الله من أهدى إليّ عيوبي».

إنّ المقياس، الّذي يُقاس به الإيمان لا يكون دقيقاً إلا في الحالات الصّعبة وعند التحدّيات، فالإيمان يُعرف عند الرّضا وتيسّر الأحوال، ويعرف أكثر عند الشدّة والعسرة.. ويُعرف عندما يكون الإنسان ضعيفاً، لكنّه يُعرف أكثر ويمتحن عندما يكون الإنسان قويّاً.

والإيمان يُعرف عند الفقر، لكنّه يُعرف أكثر عند اليُسر والغنى.. وقد لا يُعرف عند هدوء الشّهوة وخمودها، بل عند فورانها.

لقد حدّد رسول الله(ص) علامات المؤمن الحقيقيّ، عندما قال: «علامة

المؤمن أنّه إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحقّ، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس بحق».

قيل للإمام الصادق(ع): شيء يُروى عن أبي ذر أنّه كان يقول: ثلاثة يبغضها الناس وأنا أحبّها. أحبّ الموت وأحبّ الفقر وأحبّ البلاء، فقال الصادق(ع): إنّ هذا ليس على ما تروون إنّما عنى الموت في طاعة اللّه أحبّ إليّ من الحياة في معصية اللّه، والفقر في طاعة اللّه أحبّ إليّ من الغنى في معصية اللّه، والبلاء في طاعة اللّه أحبّ إليّ من الصحة في معصية اللّه.

فالفقر قد يصبح قيمة عندما يكون الإنسان فقيراً ولكنّه غنيّ في إيمانه وثقته باللّه، والمصيبة كلّ المصيبة أن يصل الإنسان إلى ثروة أو جاه على حساب هذا الإيمان، لأنّه انشغل بتجارة مآلها خسارة آخرته.

لهذا، عندما طلب أبو ذر من ضيفه أن يأتيه بأفضل إبله، كي يكرمه بالإنفاق عليه أحبّ ما لديه، فلأنّه كان يفضّل الفقر في طاعة اللّه، ولهذا أيضاً يعلّمنا الإمام زين العابدين(ع) أن نجعل هذا الدعاء منهج حياة وسلوك:

«اللّهُمَّ وَمَتى وَقَفْنا بَيْنَ نَقْصَيْنِ في دينٍ أوْ دُنْيا، فَأوْقِعِ النَّقْصَ بِأسْرَعِهِما فَناءً؛ وَاجْعَلِ التَّوْبَةَ في أطْوَلِهِما بَقاءً.. وَإذا هَمَمْنا بِهَمَّيْنِ يُرْضيكَ أحَدُهُما عَنّا؛ وَيُسْخِطُكَ الآخَرُ عَلَيْنا؛ فَمِلْ بِنا إلى ما يُرْضيكَ عَنّا؛ وَأوْهِنْ قُوَّتَنا عَمّا يُسْخِطُكَ عَلَيْنا»..

النبي أيوب(ع)
مدرسة للصبر عند البلاء

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣–٨٤].

لا يُذكر اسم النبي أيوب(ع) إلاّ وتقفز إلى الذهن كلمات الصبر والبلاء، والتحمّل، والثبات، والرضا بقضاء الله.

والقرآن الكريم لم يقدّم لنا تفاصيل كثيرة عن حياة هذا النبي، ولا عن البلاءات التي نزلت به، وجاءت قصته مختصرة، وموزعة على أربع سور هي النساء/١٦٣، الأنعام/٨٤، الأنبياء/٨٣–٨٤، وسورة ص/٤١–٤٤.

ورغم الإيجاز، فإنّ الآيات توحي بكثرة الابتلاءات والمصائب التي عاناها أيوب(ع). وتقول الروايات التي تسرد سيرته إن الله رزقه أموالاً وأولاداً وقوة في الجسم. لكن هذه الحال لم تدم عليه، فمن سُنن الله في حياة الناس أنّه جعل دار الدنيا دار اختبار وامتحان، فالسرّاء لا تبقى، والضراء لا تدوم، والإنسان في الحالتين يخوض امتحانات لتمحيص إيمانه، أو لزيادة درجة قربه من الله، أو تكامله، وجعله قدوة وأسوة.

لقد كان أيوب نبياً، ومع ذلك فَقَدَ أمواله وكل ثروته ومات أولاده، ثم أُصيب بعلة شديدة أنهكت جسده، وجعلته عاجزاً عن الحركة.

كانت النعم تُسلب من أيوب (ع) الواحدة تلو الأخرى، وتُفقده في الوقت نفسه أصدقاء وأحبة، وأهلاً.

إنّ البلاء لا يتوقف تأثيره عند حدود صاحبه، هو امتحان له ولمن يحيطون به. فكم من صاحب مال أو جاه أو سلطة يفقد أصحابه ومريديه، وربما أهله وأولاده ما إن يضرب البلاء أطنابه في ديار ذلك الشخص.

ما وصلت إليه حال أيوب (ع) دفعت أقرب المقربين منه إلى الابتعاد عنه. أصبح بلاؤه فتنة لمن حوله: بعضهم قاطعه خوفاً من العدوى، وآخرون شماتة أو يأساً من خيره.

بلاء أيوب كان البداية لبلاء آخر، إذ وضعه على هامش الحياة.

أتت إليه زوجته يوماً، تحدثه عن بؤس حالها، وعجزها عن تحمل المزيد من المعاناة معه.. ثم تطلب منه أن يدعو الله ليكشف عنه البلاء، فأجابها النبي أيوب(ع) بلسانه النبوي: «كم لبثت في الرخاء؟ قالت: ثمانين سنة، قال (ع): كم لبثت في البلاء؟ قالت: سبع سنين، قال: أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي وأنا لم أقضِ فيه مدة رخائي؟».

لكنّ أعباء هذا البلاء كانت أكبر من أن تتحملها الزوجة، فتستسلم لليأس، وتقرّر تركه، وكأن الأمر كان فوق قدرتها، أضف إلى ذلك وساوس الناس والشيطان، وضغط اجتماعي وصحي ونفسي جعلها تسقط في الامتحان، ومن الطبيعي أن يتأثر النبي أيوب بهذا، حتّى أنّه حلف مرّة ليؤدّبها على فعل أنكره عليها، وضاق صدره بما فعلت.. وأقسم أن يضربها مئة جلدة، ولتكتمل بذلك صور البلاء عنده..

وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد، حيث العزلة والوحدة والفقر والمرض.. عندها فقط، توجّه النبي أيوب(ع) بدعائه إلى الله، تضرّع بخضوع، ومن دون أي شكوى أو نفاد صبر أو ثقة بالله، وعندما دعا الله كان نعم العابد المستسلم لمشيئة ربّه. نادى ربّه بكل حياء، وبكل خجل : ﴿... أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

لقد اكتفى بتوصيف حاله: ﴿... أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ...﴾، وتوصيف حال ربه ﴿... وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ولأدبه مع ربه، وثقته به، لم يحدّد له ما يريد، لم يطلب منه شفاء، او تغيير حاله، لم يصرّح له بل لمّح تلميحاً، ليس من باب الكبر، بل من باب الأدب والحياء تاركا الأمر لله، فإن كان يرى المصلحة في شفائه فليشفِه، وإن كان يراها في بقائه في المعاناة فليبق عليها..

تعيش الإنسانية اليوم معاناة متعددة الوجوه، أبرزها ذلك القلق الذي يجتاح حياة الناس، خصوصاً الشباب، والسبب الابتعاد عن الله. إنّ التسليم لمشيئة الله يكاد يكون العلاج الوحيد لكثير من أزمات الإنسان، وأوضح معالم التسليم لمشيئة الله هي الرضا.

والنبي أيوب (ع) جسّد هذا التسليم من موقع الراضي بقضاء الله، لذلك لم يتعامل مع بلاءاته بهلع، ولم يقبع في قوقعة ألمه، ولم ينسج حوله شرنقة من العويل والنحيب والسخط.

لقد كان أيوب (ع) قدوة في التسليم المطلق لمشيئة الله، وكان قدوة في ثقته بالله سبحانه، وإيمانه بأنّ الذي يجري عليه هو خير له.

وفي هذا يقول الحديث: «ما خلقت خلقاً أحب إليّ من عبدي المؤمن،

وإني إنما ابتليته لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وازوي عنه لما هو خير له، وأنا اعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرضَ بقضائي، اكتبه في الصديقين عندي، إذا عمل برضاي وأطاع أمري».

إنّ اليأس من رحمة الله حكم بالانتحار، فرحمة الله باب رجاء من فقد الرجاء، فقد يكون مرض الشخص مرضاً عضالاً، عجز الطب عن علاجه، وبرحمة من الله تحصل المعجزة فيشفى.

الفرج بعد الشدة ركن مهم في هذا الدرس الذي يقدّمه لنا القرآن، وموعظة للمؤمن: مع الإيمان لا مكان لليأس في قلوب المؤمنين.

فقدان الثقة بالله، وفقدان الأمل برحمته وعطفه يعني الانتحار، لهذا يظل المؤمن ينظر وهو في نفق محنته إلى بقعة الضوء التي تتألّق وتتوهّج في روحه وقلبه، فهو موقن أنّ الله لن يضيّعه، لذلك يقول الإمام علي (٤): عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حَلَق البلاء يكون الرخاء.

ولم يطل أمد بلاء أيوب، فقد استجاب الله نداءه ، وهيأ له الأسباب للشّفاء فقال له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي اخبط برجلك الأرض، فقد كان عاجزاً، فطلب الله منه أن يقوم بما يقدر عليه، وعندما ضرب برجله، أخرج له الماء بقدرته، عندها توجّه إليه النداء عبر الوحي: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. و يتلقف النبي أيوب النداء، ويكون هذا الماء سبيلاً لانهاء عذاباته وبلائه ، فيبرأ من مرضه، وتعود إليه صحته، ويشفى من كل ما أصابه، وتعود أموره كما كانت، ويتابع مع زوجته بعد ذلك حياتهما معاً فيرزقان الأولاد والأحفاد، ويعبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

أمّا حلف أيوب بأن يضرب امرأته مئة جلدة، فقد كان الأمر شديداً عليه، وأراد أن يتراجع لكن ذلك غير ممكن من ناحية شرعية، وتُسعفه رحمة الله ثانية، ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، فأخذ مئة من عيدان الشجر الخفيفة، حزمها في حزمة واحدة، وضرب بها زوجته ضربة واحدة من دون إيذاء، ومن دون أن يحنث بيمينه.

الحياة ميدان اختبار للإرادات، والنفوس، والإيمان والاستقامة، وقد ينبّه البلاء النفس فتستفيق من الغفلة، فتتوب وتؤوب إلى الله سبحانه. لذلك كانت بلاءات الأنبياء مدرسة لنا، ومناجم قدوة، ومشاعل هداية. ويشير الإمام الصادق (ع): إنّ أشدّ الناس بلاء الأنبياء.

ألم يصبر النبي نوح ٩٥٠ سنة على المصاعب لهداية قومه؟ ٩٥٠ سنة وهم يعاندون بصلف وتكبر، ويُصمّون آذانهم عن سماع صوت نبيّهم، لقد علّم نوح الأجيال: عندما لا يبقى لديك أمل فلا تفقد الأمل. حياتك هي التي تنتهي فتنتهي معها آمالك، أمّا الله فباق. والمؤمن المؤمن لا يفقد الأمل ويسلّم سلاحه، وينسحب من المعركة إلاّ إذا فقد الثقة بالله.

أيوب (ع) لم يكن صابراً فحسب، بل علّمنا في صبره كيف يكون الصبر على البلاء صبراً جميلاً لوجه الله، ومن أجل الله، لذلك وصفه عزّ وجل بوصف جميل: ﴿... نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

أن ينال الإنسان وسام العبودية من الله فهذا يعني أنّه ارتقى في تسليمه لمشيئة الله إلى أعلى الدرجات.

ثلاثة أنبياء وصفهم القرآن بصفة أوّاب: داود وسليمان وأيوب. وأطلقها أيضاً على كلّ أهل الجنة: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢].

والأوّاب: الكثير الرجوع والعودة إلى الله، فإن ابتعد للحظة عنه فسرعان ما يعود إليه، وإذا غفل فسرعان ما يستيقظ من الغفلة، لذلك قال الله في نبيّه أيوب: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]

والله كان واضحاً عندما دعانا أن نعيش حياتنا على هذا الأساس، ونواجه البلاء من هذا المنطلق: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ..﴾ [البقرة: ١٥٥].

ولأن سنن الله هي لكل الكون، والرزق للناس جميعاً، فالقوانين بأسبابها تجري أيضاً على كلّ الناس، ومن هنا فالبلاء لا يقف عند حدود العاصين لله، بل يشمل أيضاً المطيعين، فحتى الأنبياء والأوصياء والعلماء يبتلون ويعانون الشدائد، فالصبر سلاح، وأداة مواجهة، والبلاء ليس دائماً ثمناً لذنب أو معصية. من هنا ضرورة تصحيح الفكرة التي يعيشها البعض، وهي أن البلاء عقاب إلهي للمعاصي التي يرتكبها الإنسان.. نعم قد يعاني الإنسان نتائج معاصيه من ابتلاءات في حياته، لأن للمعاصي آثاراً سلبية في صحة وعقل الإنسان وقلبه، لكن ما نعنيه هو البلاء الخارجي، الخارج عن ارادة الانسان مثل الأمراض والكوارث والحوادث.

الخلق جميعاً، وحسب سنن اللّه معرضون بشكل أو بآخر للبلاء، ولا إرادة لهم في ذلك، ولكن الفرق بين إنسان وإنسان هو في كيفية تعامله مع الابتلاء..هنا يظهر المعدن الحقيقي للإنسان،

فالبعض عند نزول بلاء، كالمرض أو المصائب، يتقبل ولا يعترض... نعم يتألم، لكنه يحاول أن يتابع حياته بالصبر والعمل والأمل..

فيما البعض الآخر يسقط وينهزم ويستنكر ويعترض.

... إن مشكلة قلة الصبر على البلاء، (ناهيك عن موضوع الآخرة وخسارة الأجر الكبير الذي وعد الله به) تسبب الخوف، وتسبب الخوف من الخوف، وهكذا حتى يصبح الخوف مرضياً ومعطِّلاً..

ماذا علّمنا النبي أيوب؟ لقد ظلّ طول فترة ابتلائه ذاكراً، شاكراً، راضياً، قانعاً.. فالمعادلة واضحة عنده.. وهذا درس كبير لنا في أن نرى الصورة الإيجابية للبلاء، هذه الصورة التي حرص الكثير من الأحاديث على تأكيدها، ففي الحديث: «لن تكونوا مؤمنين حتى تعدوا البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وذلك أنّ الصبر عند البلاء، أعظم من الغفلة عند الرخاء».

إن الصبر عند البلاء يطهّر النفس والروح، ويصقل تجربة الإنسان في الحياة.. فلا سبيل إلا الصبر، كي تستمر الحياة وتنهض.. وليس أمام المؤمنين إلا الصبر مقروناً بالعمل لرفع الشدة.

في الأزمات ومعارك المواجهة يصبح الصبر سلاحاً بيد المؤمن. فالصابرون هم الذين يخرجون منتصرين من امتحانات بلائهم فمن هم الصابرون؟

تجيب الآية: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

في هذه العودة الدائمة إلى الله إقرار بالتسليم لمشيئة الله، وإقرار بالعبودية لله. ماذا يعني ذلك؟

يعني أنّك امتلكت قدرة على تعميق روح المقاومة في نفسك.

يعني أنّك تحرّرت من القلق والخوف وهواجس الفشل والهزيمة، حين وضعت كلّ أوراقك بيد رب غفور رحيم، يعرف أين تكمن مصلحتك.

اليوم كم نحن بحاجة لدروس الصبر، ودروس أيوب لنكون أوّابين، ونعود إلى الله، ونلوذ به في كل حال، نستمد القوّة والعزيمة منه، نرضى بحكمه وقضائه، حتى نتماسك كافراد وجماعات، فبالصبر نحافظ على مخزون طاقاتنا حتى نظل أقوياء، وبالصبر نحقق ما نصبو إليه من أهداف.

من خصائص الصبر أنّ بقية الفضائل لا قيمة لها بدونها، بل لا يمكن أن توجد. فعن أي شجاعة أو ثبات يمكن أن نتكلم حين يغيب الصبر؟

بالصبر يتجاوز المؤمن الهلع، والفزع، والخوف، فحين يغيب الصبر يصبح الهلع مرضاً، ومدعاة للهزيمة والانسحاب من أي مواجهة مهما كانت هزيلة وضعيفة، لذلك ينصحنا الإمام علي (ع): عليكم بالصبر، فإنّ الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه.

الحياة لا يمكن أن تخلو من الألم.. وهذا لا يعني أن نعشق الهم والغم، أو أن نسعى للبؤس.. بل إذا اتتك الظروف، وتبدلت الأحوال كما هو حاصل اليوم من ابتلاء في وحدة المسلمين، ومن خطر فتنة قد تصيبهم، فليس أمامنا إلا الصبر، والنظر بعين الله، أمّا الهلع والجزع والانسحاب من مواجهة أزماتنا فيعني فقدان الاتزان، وتبديل البوصلة والاتجاهات.

هذا ليس ديدن المؤمنين أبداً، إنما ديدنهم الصبر والتحمل والثبات، وبه ننال الدرجات عند الله: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

والصابرون دائماً هم على موعد بما وعدنا به الله، وجعله من سننه الثابتة ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

- نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب.
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
- تفسير الأمثل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي.
- تفسير الميزان للطباطبائي.
- تفسير من وحي القرآن للسيد محمد حسين فضل الله.
- مروج الذهب للمسعودي.
- السيرة النبوية لابن هشام.
- تاريخ الأمم والملوك للطبري.
- العبر في أيام العرب لابن خلدون.
- سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	5
قارون.. امتحان الغرور والانبهار بالثروة	7
طالوت.. الصبر يصنع النصر	13
النبي إبراهيم(ع) هجرة دائمة إلى اللّه	21
أهل الكهف.. مدرسة وقدوة في الإيثار	29
قابيل وهابيل.. أوّل جريمة وأوّل قبر	41
صاحب الجنتين – أصحاب الجنة.. وعي الإنفاق	47
النبي يوسف(ع).. وجهاد النفس	57
ثعلبة بن حاطب.. حين يُسقط المال أصحاب المبادئ	67
النبي أيوب(ع).. مدرسة للصبر عند البلاء	77
المصادر والمراجع	87
الفهرس	88

من الكتاب

«الحياة مملوءة بالتحديات والإغراءات، وقد يُجرَّب الإنسان في ماله، أو ولده، أو صحته، أو سلطته، أو شهواته، وكلّها بلاءات تعترض مسيرة حياته، مرّة أو مرّتين أو مرّات، والمؤمن هو من يتّعظ من تجاربه ومن تجارب غيره، وما أكثر القصص والعِظات التي يقدّمها لنا القرآن الكريم عن حياة جماعات، أو أمم دمّرها ظلمها لنفسها، وعن أفراد اشتهروا في التاريخ، وعرفتهم مجتمعاتهم نماذج للطغيان أو التسلّط، أو التكبّر والغرور».

ISBN 9953-464-87-1

إصدار المركز الإسلامي الثقافي
لبنان- بيروت هاتف: 557000 1 961+